مُسَامَرَةُ الصِّدِّيقِ بِبَعْضِ أَحْوَالِ أَحْمَدَ بْنِ الصِّدِّيقِ

بقلم
محمود سعيد ممدوح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الأكرمين، ورضي الله عن صحابته والتابعين وبعد.

فإنِّي كنتُ أُحبُ أن أكتبَ ترجمةً ضافيةً مستوعبة للعلامة المجتهد الحافظ الشريف سيدي أحمد بن محمد بن الصِّديق الغُمَاري الإدريسي الحسني المتوفى سنة ألف وثلاثمائة وثمانين عن تسع وخمسين سنة ـ رحمه الله وأثابه رضاه ـ أستوعب فيها أحواله، من مهده إلى لحده، ثم أتكلم على مصنفاته عرضاً ووصفاً، ثم أتكلم على آرائه ثم أختم بآثاره.

ولما كانت لي خبرة بحياة السيد أحمد وفوائده ومصنفاته وآرائه وجدت نفسي أمام بحر متلاطم، متعدد الاتجاهات والفوائد، فليس هو بالخامل أو صاحب الاتجاه الواحد، ولكن الأشغال كثيرة، والأوقات قلَّت بركتها فرأيت أن أختصر وأقتصر على شذرات وخطرات تفي بمطلوب هذه العجالة فإن ما لا يدرك كله لا يترك جله، وعنيت أن تكون في مواضع كثيرة نصوصاً اقتبستها من مصنفات السيد أحمد رحمه الله تعالى لأن دلالة تلك النصوص على المطلوب أظهر.

وقسمت هذه الدراسة ـ المتواضعة ـ إلى قسمين:

ـ الأول: مَسْردُ حياة السيد أحمد بن الصِّديق، واعتمدت فيه على المترجم نفسه فإنه ترجم لنفسه في مكانين:

أولهما: الجزء الأول من كتابه «البحر العميق في مرويات ابن الصِّديق»، وهو مخطوط في مجلدين.

ثانيهما: ترجم لنفسه في كتاب «سبحة العقيق، بذكر مناقب الشيخ سيدي محمد بن الصديق» وترجمته فيه في الباب التاسع، وتوجد نسخة من «سبحة العقيق» بخط المؤلف في الخزانة العامة بالرباط. وهذه الثانية اعتمدت عليها ونقلتها بنصِّها ثم زدتُ بعد انتهاء كلامه ما يلزم لإتمامها حيث إنها كتبت قبل مغادرة المترجم في المرة الأخيرة للمغرب متوجها للقاهرة.

- الثاني: مباحث متنوعة ألمت ببعض جوانب من آرائه كتبتها من رأس القلم، راجياً أن تكون معالم لعمل متكامل يتناول اتجاهات وآراء أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى.

وهذه المباحث هي:

١ - أحمد بن الصِّدِّيق، ورغبة تجديد الفقه المالكي.

٢ - أحمد بن الصِّدِّيق، ومعرفة الحديث.

٣- أحمد بن الصِّدِّيق، وآل البيت عليهم السلام.

٤ - أحمد بن الصِّدِّيق، والاجتهاد والتقليد.

٥ - أحمد بن الصِّدِّيق، والتصوف.

وقد سميت هذه الدراسة المتواضعة بـ «مُسَامَرَةُ الصدِّيق ببعض أحوال أحمد بن الصِّدِّيق».

والله أسأله العون والسداد، والتوفيق والرشاد، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى الأكرمين، ورضي الله عن صحابته والتابعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتب
محمود سعيد ممدوح
غفر الله له وللمسلمين

القسم الأول

مسرد حياة
السيد أحمد بن الصِّديق الغُمَاري(١)

[ولادته وموطنه ونشأته:]*

ولد يوم الجمعة السابع عشر من رمضان سنة عشرين وثلاثمائة وألف بقبيلة بني سعيد الغُمَارية فإنَّ والده كان قد توجه بأهله بقصد الزيارة وصلة الرحم، ومكث بزاوية محيحين عند أخته وشقيقته الشريفة الصالحة حبيبة زوجة ابن عمها الشريف الصالح سيدي الحاج عبدالصمد بن عبدالمؤمن فازداد المترجم هناك ثُمَّ رجع به والده إلى طنجة وله نحو الشهرين فنشأ بها. ولما بلغ

---

* العناوين الجانبية التي مابين معقوفتين زيادة مني.

(١) مصادر الترجمة:

أولاً: ترجم لنفسه في:

١ - الجزء الأول من كتابه «البحر العميق في مرويات ابن الصِّديق» وهو في مجلدين ولا يزال مخطوطاً.

٢ - وفي كتابه الذي أفرد فيه مناقب والده واسمه: «سبحة العقيق في ترجمة سيدي محمد بن الصِّديق»، وهو في مجلد ضخم بالخزانة العامة بالرباط، وهي عمدة هذا القسم.

ثانياً:

١ - وترجمه شقيقه شيخنا العلامة المحقق السيد عبد الله بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى في «سبيل التوفيق في ترجمة عبد الله بن الصِّديق» (ص٦٢، ٦٣) وقال: (أخي أبوالفيض السيد أحمد بن الصِّدِّيق العلامة الحافظ، كان يعرف الحديث معرفة جيدة، وصنف فيه التصانيف العديدة، وانقطع له فأخرج لنا مصنفات ذكرتنا بالحفاظ المتقنين كالمداوي لعلل الجامع وشرحي المناوي في ستة مجلدات =

من العمر خمس سنين أدخله والده المكتب لحفظ القرآن على أحد تلاميذه في العلم والطريق وهو الفقيه العلامة السيد العربي بودرة المغربي، ثم لما كان له من العمر تسع سنين رحل به والده إلى الحج وزيارة تلك الأماكن وما بها من العلماء والصالحين.

= ضخام، وهداية الرشد في تخريج أحاديث ابن رشد في مجلدين، واستخرج على مسند الشهاب، وعلى الشمائل المحمدية، وكتب أكثر من خمسين جزءاً حديثياً لا يعرف أن يكتبها أحد في عصرنا خاصة «فتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم علي»، «ودرء الضعف عن حديث من عشق فعف» وله غير ذلك من المصنفات في الحديث والفقه وغيرهما).

٢ - وقال شيخنا رحمه الله تعالى في سبيل التوفيق (ص ٥٦) في فصل المحدِّثين المعاصرين: «منهم أخي السيد أحمد بن محمد بن الصِّديق كان يعرف الحديث معرفة تامة، وله فيه بحوث مهمة وتآليف مفيدة، وكان كثير القراءة لا يمل منها وله اطلاع واسع على كتب الحديث المطبوع منها والمخطوط، ولو تيسر له من الكتب ما تيسر للحافظ ابن حجر، أو السخاوي ما كان يقل عنهما.

ومن كتبه الدالة على علو كعبه في علم الحديث: تخريج أحاديث بداية المجتهد، وكتاب (المداوي لعلل الجامع وشرحي المناوي) في ستة مجلدات. من قرأه يدرك منه اتقانه لعلم العلل، والبحث في الأسانيد بطريقة المحدِّثين الكبار، وله مستخرج على الشمائل، ومستخرج على الشهاب والمستخرجات انقطعت من ثمانية قرون، وأملى مجالس حديثية بالمسجد الحسيني وجامع الكخيا وبطنجة».

٣ - وترجمه شقيقه شيخُنا المحدِّث العلامة السيد عبد العزيز بن الصِّديق رحمه الله في «تعريف المؤتسي بأحوال نفسي» فقال فيه (ل١٧٦):

«أحمد بن محمد بن الصِّديق شقيقي أبو الفيض صاحب التآليف الكثيرة المفيدة الحافظ الحجة الذي ألقت إليه علوم الرواية بالمقاليد. وحاز قصبَ السبق في مضمارها، وأتقن فنونها، فلا يوجد له نظير في مشرق الأرض ومغربها في الإحاطة بأصولها وأقوال أئمتها، الحق أنه ابن حجر هذا العصر من غير منازع ولا مخالف وتآليفه شاهدة بهذا لمن قرأها وسبر غورها مع التضلع واليد الطولى =

ولما كان بالمدينة المنورة رأى في عالم الرؤيا كأنه دخل بستاناً عظيماً فوجد به الإمام المحدِّث العارف سيدي محمد جعفر الكتاني فوضع يده على رأسه وجعل يماشيه وهو يقرأ سورة المزمل، وفي تلك الحال ألقي في روعه أنه النبي

= في علوم الدراية كالأصول وغير ذلك».

٤ – وترجمه تلميذه العلامة سيدي عبد الله بن عبد القادر التليدي في كتاب مفرد مطبوع اسمه «الأنس والرفيق بمآثر الشيخ سيدي ومولاي أحمد بن الصِّديق» أو «حياة الشيخ أحمد بن الصِّديق» وحلاه بقوله: «هو النابغة الحافظ الواعية الناقد المطلع المسند الراوية أستاذي وشيخي وسندي وسيدي ومولاي أبو الفيض أحمد ابن القطب الغوث سيدي محمد بن الصِّديق قدس الله روحه».

وللشيخ عبد الله التليدي أيضاً: «تحفة القاري في بعض مبشرات وكرامات أحمد بن الصِّديق الغماري» طبع بالمطبعة المهدية بتطوان سنة ١٣٨٢هـ.

٥ – وترجمه العلامة الفقيه المؤرخ المسند سيدي عبد السلام بن عبد القادر بن سُودة رحمه الله تعالى في فهرسته «سل النصال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال» (ص١٨١) وقال في تحليته: «أحمد بن الشيخ محمد بن الصِّديق الغُمَاري الحسني، الشيخ الحافظ المحدِّث المسند الناقد الراوية الكاتب المقتدر الفقيه ذو أفكار صائبة في جلِّ المسائل، يُعد من أكبر المحدِّثين اليوم بالديار المغربية، له تآليف عديدة بلغني أنها أكثر من مائتين، كلُّها مفيدة على اختلاف أنواعها في الحديث والسير والفقه وغير ذلك، وقد طُبع بعضُها وأفادت وانتشرت وتطلبها الناس».

وترجمه ابن سُودة المذكور في «إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع (٢/ ٥٧٤) وحلاه بـ«المشارك المحدِّث المطلع المؤلف الشهير، من آخر من أتقن علم الحديث نصَّاً وإسناداً العلامة الحافظ ألف تآليف عديدة في مواضيع مختلفة من علم الحديث وغيره، وهي مفيدة طبع البعض منها».

٦ – وترجمه تلميذه ورفيقه العلامة الشيخ أحمد بن محمد مرسي النقشبندي المصري رحمه الله تعالى في تقدمته لـ«البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي» (ص١٣) وقال: «هو الإمام المجتهد، خاتمة الحفاظ، فارس المعاني والألفاظ، محي السنة والداعي إليها، ومميت البدعة، والناعي عليها أبو الفيض=

صلى الله عليه وآله وسلم، فلما حكاها لوالده استبشر بها وأولم وليمة عظيمة لما رجع من الحج من أجلها، ثم بعد ذلك ظهر مصداق هذه الرؤيا من جهات متعددة منها اشتغالُه بعلم السنة الذي كان بدايته بواسطة كتب سيدي محمد بن جعفر الكتاني المذكور كما سأذكره.

= أحمد. . .» وكان يقول عن السيد أحمد بن الصِّديق: «هو عالم في شخص، وأمة في نفس».

وقال الشيخ أحمد بن محمد مرسي النقشبندي المذكور في تقدمة كتاب الكنز الثمين (ص د): «وقد أنجب هذا القطب الكبير عالمين جليلين هما: ابنه الأكبر الإمام المجتهد أبو الفيض السيد أحمد الذي بلغ درجة إمارة المؤمنين في علم الحديث، وقد شاهدتُ من سعة حفظه ما يُذكِّرُ بالحفاظ المتقدمين فإنه أحيا بمصر سُنّةَ الإملاء عند المحدِّثين، فأملى بالمسجد الحسيني وبجامع الكخيا مجالس من حفظه، أذكرتنا بما حكاه الجبرتي في تاريخه عن مجالس الإملاء التي أملاها السيد مرتضى الزبيدي».

٧ – وترجمه العلامة المتفنن مسند العصر شيخنا محمد ياسين بن محمد عيسى الفاداني المكي الشافعي رحمه الله تعالى في ثبته الكبير «بغية المريد من علوم الأسانيد» وذكر شيخنا العلامة الفاداني رحمه الله تعالى أسانيد المترجم له في كثير من أثباته وتقييداته ويحليه دائماً بالعلامة الحافظ الناقد.

٨ – العبد الضعيف كاتب هذه السطور في:

أ – «تشنيف الأسماع بشيوخ الإجازة والسماع»، وحلاه بـ«الإمام الحافظ المحدِّث الناقد، نادرة العصر وفريد الدهر، ذو التصانيف والذكاء والحافظة المفرطة شهاب الدين أبو الفيض وأبو الخير الحسني الإدريسي المغربي الطنجي الغُمَاري».

ب – وفي «ارتشاف الرحيق من أسانيد عبد الله بن الصِّديق» (ص ٦٦).

جـ – وفي «فتح العزيز بأسانيد السيد عبد العزيز»(ص ٧).

د – وفي «تزيين الألفاظ بتتميم ذيول تذكرة الحفاظ» (ص ١٠١).

هـ – و«إعلام القاصي والداني ببعض ما علا من أسانيد الفاداني» (ص ١٣). =

[بداية طلبه للعلم :]

وبعد الرجوع من الحج رجع لإتمام حفظ القرآن على الفقيه المذكور فأكمل عليه حفظ القرآن ، وحفظ عليه أيضاً المقدمة الآجرومية ، وألفية ابن مالك ، والمقدمة السنوسية ، والأربعين النواوية ، وبعض مختصر خليل ، وقرأ عليه الآجرومية بشرح الأزهري ، والمرشد المعين بشرح ميارة الصغير ، والسنوسية ، وشرح الأربعين .

= ٩ – وترجمه الكُتُبي زكي محمد مجاهد – صاحب الأعلام الشرقية – في كتابه = «الأخبار التاريخية في السيرة الزكية» (ص ٨١) .

١٠ – وترجمه الأستاذ عبد الحكيم هندي المصري في ذيله على كتاب «العقد الجوهر فيمن له خمسون كتاباً أوأكثر» للعظم .

١١ – والأستاذ خير الدين الزركلي في مستدرك الأعلام (١/ ٢٥٣) .

١٢ – والأستاذ عمر رضا كحالة في «المستدرك على معجم المؤلفين» (ص ٩٢) .

١٣ – في دليل مؤرخ المغرب .

١٤ – والأستاذ الفاضل محمد الفاطمي الشهير بابن الحاج السلمي رحمه الله في «إسعاف الإخوان الراغبين بتراجم ثلة من علماء المغرب المعاصرين» (ص ٣٤)

١٥ – والأستاذ الفاضل مصطفى صبري المصري في مقدمة تحقيق كتاب «المداوي لعلل الجامع وشرحي المناوي» .

١٦ – والدكتور يوسف مرعشلي في مقدمة تحقيق كتاب «تخريج أحاديث بداية المجتهد» .

١٧ – والأستاذ المختار التمسماني في مقدمة كتاب المترجم له «جؤنة العطار» .

١٨ – والأستاذ الفاضل المعتني سيدي الحسين بن سيدي الفقيه اللغميش في اطروحتين الأولى بعنوان : الشيخ أحمد بن الصِّديق الغُمَاري محدِّثاً من خلال فهرسته «البحر العميق في مرويات ابن الصِّديق» .

والثانية بعنوان : الشيخ أحمد بن الصِّديق محدِّثاً من خلال كتابه : «ليس كذلك» . . . . =

ثُمَّ قرأ ختمة من القرآن العظيم على الفقيه عبدالكريم البراق، أحد تلامذة والده في العلم وأتقن عليه علم رسم القرآن بنظم الخراز، وشرحه فتح المنان لابن عاشر ثم ختمتين أو ثلاثاً على بعض تلامذة والده في الطريق وهو الفقيه محمد الأندلسي.

[عناية والده به:]

وأمره والده بحفظ جوهرة اللقاني في التوحيد، والبيقونية في المصطلح، فحفظهما ثم أعطاه نسخةً من ألفية العراقي وأمره أيضاً بحفظها فحفظ أكثرها.

وكان في هذه المدة كلها يحضر دروس والده في المختصر، والألفية، وصحيح البخاري في المسجد الأعظم ويلازمه في البيت في علوم جمة من

= ١٩ - والأستاذ الفاضل سمير محمد في أطروحته «الزواية الصديقية بالمغرب».

٢٠ - والأستاذ الفاضل الرحماني البكاي في أطروحته «الحركة الحديثية بالمغرب خلال القرن الرابع عشر - أسرة ابن الصِّديق نموذجاً».

وهذه الأطروحات من جامعات المغرب.

٢١ - والأستاذ الفاضل سيدي الشيخ عبد الله السوادي اليماني في جزء مفرد سماه «يتيمة الدراري في وجيز ترجمة الحافظ أحمد بن الصِّدِّيق الغُماريّ»، وهو من مطبوعات دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي.

٢٢ - والأستاذ نظام يعقوبي البحريني في مقدمة طبعته لكتاب السيد أحمد «تحقيق الآمال في إخراج زكاة الفطر بالمال».

٢٣ - والأستاذ الفاضل المعتني الشريف سيدي محمد الحسن بن علي بن شيخنا العلامة محمد المنتصر بالله الكتاني في أطروحته بالجامعة الأردنية بعنوان «فقه الحافظ أحمد بن الصِّديق الغُماري المتوفي سنة ١٣٨٠ - دراسة مقارنة».

وغيرهم ممن قام بتحقيق بعض مصنفات المترجم له وأحسن الله للجميع.

تفسير، وحديث، وفقه على المذاهب الأربعة، وتصوف، وتاريخ، وتراجم الأئمة، ورجال الحديث، والمشاهير من الأولياء والفقهاء، والعُباد والزُّهاد، وذكر نوادرهم وحكاياتهم مع الحثِّ على الاقتداء بهم والاهتداء بهديهم والتخلق بأخلاقهم وسمو الهمة إلى بلوغ درجاتهم في العلم، والمعرفة، والتفرد والزهد، والورع وتكرار ذلك في الصباح والمساء ووسط النهار وعند كل مقتضٍ لذلك مع الحطِّ من الدنيا والتنفير منها ومن أهلها ومن مخالطتهم، والتشبه بهم والنظر إليهم بعين الرغبة في حالهم والسير على سيرهم والمبالغة في ذلك بالقول والفعل، والهمة والحال، فشبَّ على تعظيم الدينِ وأهلهِ ومحبة الفقراء والصالحين والعلماء العاملين والنظر إليهم بعين الإجلال والإكبار وعدم اعتبار من سواهم من أهل الدنيا والخوض فيها، وعدم اعتبارهم والنظر إليهم بعين الفضيلة والإجلال حتى صار ذلك طبعاً له وخلقاً جبلياً فيه، مع الاعتقاد الجميل والتسليم لكل أحد خصوصاً ممن ينتمي إلى طرق أهل الله على أي حالة كانوا، وتفويض أمرهم إلى الله وكف اللسان عن جميع المؤمنين وحمل أذاهم في أمثال هذا، مع المذاكرة في الكتب العلمية على اختلاف فنونها ومراتب أهلها وبيان النفيس منها من غيره، وبيان ما طبع ومالم يطبع وبيان المكاتب العامرة ولَفْت النظر إلى زيارتها، وإلى تحصيل النفيس من الكتب العلمية وغير ذلك حتى كان على صغر سنه أعلم بهذه الأمور من غالب طلبة العصر القاصرين على معرفة ما في الألفية والمختصر والمرشد المعين.

وشرع في حضور المختصر بشرح الدردير على الفقيه الصوفي أبي العباس أحمد بن عبدالسلام بطنجة فلم يحضر عليه إلا دروساً ثم تركها لكونه ملَّ من

طول مجلسه مع قلة فائدته فإنه كان يجلس نحو الثلاث ساعات فأزيد فلا يقرأ من الكتاب قدراً وافراً، ولا يأتي في الدرس بفوائد جمة وعلم زائد على ما في الشرح والحاشية، وإنما يطول المجلس بكثرة تكرار العبارة المرة بعد الأخرى.

[بداية اشتغاله بالحديث الشريف :]

ثم حبب إليه الاشتغال بالحديث، وكان السبب في ذلك أنه قرأ كتاب شيخه سيدي محمد بن جعفر الكتاني المسمى بـ «شفاء الأسقام والآلام فيما يكفر ما تقدم وما تأخر من الذنوب والآثام» واعتنى به عنايةً تامةً حتى كان يستحضر جُلَّ ما فيه لاعتنائه بالمكفرات ثُمَّ ظهر له الاستدراك عليه وأحبَّ الوقوفَ على الأصول التي ينقل منها شيخُه فأقبل على مطالعة الكتب الحديثية ككنز العمال لابن المتقي الهندي الذي رتب فيه الجامع الكبير، وشَرْحِ الإحياء للسيد مرتضى الزبيدي، ومشكاة المصابيح وذيلها للقِنَوْجي، وتيسير الوصول، والتيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي.

ثُمَّ تعلقت همته بمعرفة الضعيف والموضوع وسبب ذلك، ومعرفة الضعفاء من الرجال والوضاعين فقرأ كتابَ «اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» للحافظ السيوطي مراراً، و«القول المسدد في الذبِّ عن مسند الإمام أحمد» للحافظ ابن حجر، و«الميزان» للذهبي، فتدرب بها تدرباً عظيماً مع مطالعة الكتب المؤلفة في الأحاديث المشتهرة كالمقاصد الحسنة للحافظ السخاوي، و«تذكرة الموضوعات» لابن طاهر المقدسي، و«تمييز الطيب من الخبيث» و«اللؤلؤ المرصوع» حتى أشرف على حفظ أكثر ما في هذه الكتب واستحضاره

مع مافي شرح الجامع الصغير للمناوي من تصحيح وتحسين وتضعيف وكلام على الرجال، كل هذا وهو لم يقرأ من العربية وغيرها من العلوم إلا النزر اليسير الذي تقدم ذكره.

[بداية التصنيف :]

ثُمَّ في أواخر سنة ثمان وثلاثين أمر والدُه الفقراءَ المتجردين بالزاوية بحفظ القرآن وإحيائه باللوح، مَنْ حفظه سابقاً ومن لم يحفظ، فحصل منهم امتثال وإكباب عليه فظهر للمترجم أن يؤلف تأليفاً في فضل القرآن لكونه لم يقف إذ ذاك على تأليف في فضائله وإنما كان يسمع من والده ذكر فضائل القرآن للقرطبي والثناء عليه فجمع كتاباً حافلاً في مجلد متوسط هو أكبر من فضائل القرطبي سماه «رياض التنزيه في فضل القرآن وفضل حامليه»، ولما أتمه أتى به لوالده وكان معه في المجلس خاله الشريف العلامة المقري سيدي السعيد بن أحمد بن عجيبة قدم من القبيلة الأنجرية لزيارته فلما رأى الكتاب سُرَّ غايةَ السرور وأخذه نوع من العَجَب، حيث رأى صدور ذلك التأليف منه على صغر سنه، وكونه لم يتقدم له كبير طلب للعلم فألح على والده أن يوجه به لطلب العلم فحرك منه ماكان كامناً من العزم على ذلك.

[رحلته الأولى للقاهرة :]

فبعثه والده إلى مصر القاهرة وبعث معه اثنين من تلامذته للقيام بشؤونه فتوجه في جمادى الثانية من سنة تسع وثلاثين ومَرَّ في طريقه بالجزائر فنزل بها، وزار ولي الله تعالى سيدي عبدالرحمن الثعالبي واشترى منها بعض

الكتب النفيسة، ثُمَّ الإسكندرية وزار القطب أبا العباس المرسي، وأبا الدر ياقوت العرش، والشريف البوصيري.

ثُمَّ دخل القاهرة وابتدأ بزيارة من بها من آل البيت والأولياء والصالحين بإيصاءٍ من والده، وحَثٍّ منه على ذلك وعيّنَ له ستةً أمره بالإكثار من زيارتهم والتردد إلى أضرحتهم، ووعده على ذلك بحصول البركات، وطي الطريق في طلب العلم، وهم: مولانا الحسين، والسيدة زينب، والسيدة نفيسة، والإمام الشافعي، وابن عطاء الله، وسيدي عبدالوهاب الشعراني فكان يزورهم كُلَّ أسبوع بل كان يخرج يوم الجمعة عند شروق الشمس ويركب إلى القرافة، ثم يدور على من بها، فلا ينتهي إلا عند صلاة ظهر الجمعة، ولا يقف عند أحد إلا مقدار ما يقرأ الفاتحة، والإخلاص إحدى عشرة مرة ثم بعد صلاة العصر، يذهب أيضاً لزيارة من بداخل القاهرة كالخوّاص والشعراني، والدَرْدِير وغيرهم، ثُمَّ يجعلُ للقَرافَة الصغرى يوماً غير يوم الجمعة.

هكذا استمر في المرة الأولى وهي سنتان فرأى لذلك بركةً عظيمةً وخيراً جسيماً.

وعندما عزم على التوجه إلى القاهرة أعطاه والدُه دروساً وإرشاداتٍ في كيفية التلقي وما يقدمه من العلوم وما يؤخره، وصفةَ العلماء الذين ينبغي الحضور عليهم، وأمره بالتأدب مع المشايخ وإجلالهم واحترامهم، وأثنى له كثيراً على الشيخ محمد بخيت وأمره بالحضور عليه والتردد إليه.

وقال له: لا تتعب كثيراً في طلب العلم فإنَّا ما أرسلناك إلا لتسلك الطريق الشرعية لطلبه وإلا فحصوله مضمون لك بفضل الله، فإنَّا قومٌ العلمُ هو الذي

يطلبنا. ثُمَّ لقنه وِرْدَ الطريقة وأمره بقراءةحزب النووي وحزب البحر صباحاً ومساءً، ولو بالطريق إنْ تعذر في البيت وأوصاه بالبحث عن الكتب النفيسة وعَيّن له بعض الكتبيين الذين يُرشدونه للحصول عليها وذكر له منهم: السيد أمين الخانجي أعلم كتبية الدنيا على الإطلاق.

ولما دخلَ القاهرةَ صادفَ أن كان نزوله ببيت في حارة حوش قدم، فبينما هو فيه بعد العشاء من اليوم الثالث سمع الفقراء يذكرون الله ببيت قريب منه فسأل بعض الزائرين له فأخبروه بأنه بيت الشيخ طه الشَعْبيني شيخ الطريقة الدرقاوية، فلم يملك نفسَه أن قام هو ومن معه وذهبوا إلى البيت وجلسوا في حلقة الذكر فلما انتهت الحضرةُ أخذَ بيده الشيخُ وأدخلَه إلى محل يجلسُ به مع بعض أصحابه من العلماء وكان ساعتئذٍ فيه نحو أربعة من العلماء فأقبلوا عليه بالسؤال فأخبرهم أنَّه قَدِمَ لطلب العلم بالأزهر فأجابوه بأنَّ الأزْهرَ في عطلة الصيف وأنَّ الدراسة لا تبتدئ به إلا بعد ثلاثة أشهر فنطق بعضُهم قائلاً: أنا أقرأ معه ما يريد من النحو في هذه المدة إلى حين ابتداء الدراسة، فقال الآخر: «وأنا أقرأ معه البلاغة» فقال الثالث: «وأنا أقرأ معه الفقه المالكي» وعين كل واحد منهم وقتاً للحضور عليه ببيته.

[شيوخه من علماء الأزهر وماذا قرأ عليهم:]

ولكن لم يرد الله له الحضور إلا على أولهم وهو الأستاذ الشيخ محمد إمام ابن إبراهيم السَّقا فافتتح معه المقدمة الآجُرُومية بشرح الكَفْراوي وختمها في ثمانية عدر يوماً ثُمَّ الألفية بشرح ابن عقيل وحاشية السجاعي فوصل فيها إلى حروف الجر.

ثم ابتدأت الدراسةُ بالأزهر بعد عيد الفطر فشرع يقرأ الألفية بشرح الأُشْمُوني وحاشية الصَبَّان على أستاذٍ عينه له الشيخ محمد إمام السَّقا وهو صديقه الشيخ حسن حجازي فابتدأها من الأول إلى الإضافة، وانتهت الدراسة.

وقرأ مختصر خليل بشرح الدردير وحاشية الدسوقي من أوله إلى آخر كتاب النكاح على الشيخ ياسين الجندي، والتفسير وصحيح البخاري على علامة مصر الشيخ محمد بخيت، ورسالة الوضع على الشيخ حسن حجازي المتقدم، والتهذيب في المنطق للسعد بشرح الخَبيصي وحاشية العطار عليه أيضاً.

وهو مع ذلك ملازم للحضور على أستاذه السقا في البيت فقرأ عليه السُلَّم بشرح البَيْجوري وجوهرة التوحيد بشرحه أيضاً، وسمع عليه مسند الشافعي، وثلاثيات البخاري، والأدب المفرد له ومسلسل عاشوراء بشرطه في سنتين والرحمة المسلسل بالأولية كذلك، وكان الأستاذ يتعجب من ذكائه وسرعة فهمه وشدة حرصه على التعليم ويقول له: «لا بد أن يكون والدك رجلاً صالحاً للغاية وهذه بركته معك بلا شك فإنا ما رأينا من ينتقل بهذه السرعة فالطلبة عندنا لا يصلون إلى حضور الأشموني إلا بعد طلب النحو ست سنين وأنت ارتقيت إليه في مدة ثلاثة أشهر»، وكان يذيع هذا بين العلماء ويذْكُرُه لكل من يدخل عليه وهو موجود معه أو يقابله وهو معه بالطريق، وكان يقول له لما يرى حرصه على التحصيل: «أنتَ تريدُ أن تشربَ العلمَ لا تطلبه كما يطلبه الناس»، حتى كان

يقول له في بعض الأحيان: «أخاف عليك التخليط من هذا الإكثار»، خصوصاً لما طلب منه أن يقرأ معه كتب الفقه الشافعي مع حضوره للفقه المالكي.

وقرأ صحيحَ مسلمٍ قراءةَ بحثٍ وتحقيقٍ بشرحَي النواوي والأُبِّي من أوله بفوت يسير إلى آخر كتاب النكاح على أبي العباس أحمد بن محمد بن نصر العدوي شيخ المالكية، وأول سنن أبي داود بشرح عون المعبود عليه أيضاً، واختصار جمع الجوامع بشرحه لشيخ الإسلام على الشيخ خليل الشافعي وابتدأ قراءة المصطلح على أستاذٍ عينته المشيخة فوجده لا يفهم المصطلح فترك درسه، وقرأ النخبة وحده ففهمها جيداً.

[كتابة بعض الأجزاء الحديثية، والعناية بالنحو:]

وقرأ الموطأ بشرح الزرقاني على الشيخ محمد السمالوطي، وكان يقرأ عدة أبواب في اليوم الواحد.

ورأى فيه قصيدة فيمن يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله فوضع عليها شرحاً كتبه في ليلة الأربعاء والخميس الخالية من مطالعة الدروس ثم خرّج أحاديث التحفة المرضية وكتب جزءاً سماه: «دفع الرّجز بإكرام الخبز»، جمع فيه طرق حديث: «أكرموا الخبز».

وجزءاً في طرق حديث: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه»، ثم شرع في حفظ البخاري بأسانيده فحفظ منه جملةً وافرةً وكان يحملُ معه الكراسَ منه

ومن مقدمة علوم الحديث لابن الصلاح فيقرأ فيهما بالمجالس والطرق الخالية ولا يترك النظر في الجامع الصغير، واللآلي المصنوعة، وميزان الذهبي، حتى صار يستحضر أكثر ما في هذه الكتب من أحاديث ورجال خصوصاً مشاهير الضعفاء والوضاعين. ولما سَمع مسلسلَ عاشوراء بشرطه على الشيخ محمد بخيت ألّف رسالته «لب الأخبار المأثورة» التي طبعها بمجرد رجوعه إلى طنجة سنة إحدى وأربعين.

واعتنى بعلم النحو وحصل له ميل إليه في بداية الأمر حتى شرع في وضع شرحٍ مطول على الآجرومية أكمله بعضُ إخوانه، وحتى أنه دخل مرة على موضع أخيه السيد عبدالله فوجد في موضعه كراسة من شرحه على الآجرومية الذي أتمه في مجلد ووقف في الكراسة على محل نزاع بين النحاة في مسألة طويلة الذيل ثم وضع الكراسة وقام للمكتبة يراجعُ في المطولات الحقَّ في المسألة فكتب من إملائه الراجح في المسألة وخرج، فلما رجع أخوه المؤلف ووقف على ما كتب تعجب منه غاية التعجب لموافقته لما كان يريد أن يكتب. ثم بعد ذلك لما وقف على ذَمٍّ بعض العلماء للتوغل في النحو حصل له فتور عنه.

ومن عجيب ما اتفق له فيه أنه شرع في تدريسه عقب قدومه من مصر في المرة الأولى فلم يتم أسبوعين إلا وتوفيت والدته ثم ترك الاشتغال به إلى سنة أربع وخمسين فعرض له الاشتغال به على سبيل التذكرة لمسائله ووقع اختياره على مغني اللبيب لابن هشام فلم يمض على اشتغاله به نحو أسبوعين حتى توفي والده.

[رجوعه للمغرب وأخذه عن علماء المغرب:]

وكان رجوعه إلى المغرب من الرحلة الأولى في شعبان من سنة إحدى وأربعين. وفي تلك السنة رحل إلى فاس فأخذ بها عن شيخ الجماعة أبي العباس أحمد بن الخَيّاط وسمع منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية والمسلسل بالمصافحة والمشابكة، وعن أبي عيسى المهدي الوزّاني حيث وَجَدَه ملازماً للفراش من مرض موته، وبعد الاجتماع به بأيام تُوفي وهو لا يزال بفاس.

وإلى «الجديدة» فأخذ بها عن العلامة المحدِّث أبي عبدالله محمد بن إدريس القادري، وسمع منه المسلسل بالأولية.

وإلى «رباط الفتح» وأخذ به عن الشيخ الصوفي فتح الله بن أبي بكر البناني وسمع منه المسلسل بالأولية وغيره وعلى العلامة الأديب شيخ الجماعة المكي البطاوري، ثم رجع إلى طنجة فشرع في تخريج أحاديث الشهاب للقضاعي بسؤال من أخيه المتقدم الذكر سلك فيه مسلك التقليد في العزو[١].

ثم لما وقف على مسند الشهاب وبحث في أسانيد تلك الأحاديث وجد التقليد في العزو يوقع في أغلاط وأوهام كما هو شأن التقليد في كل شيء فشرع في تخريج آخر سماه «فتح الوهاب»[٢].

(١) اسمه «منية الطلاب بتخريج أحاديث الشهاب».

(٢) و«فتح الوهاب بتخريج أحاديث الشهاب» للسيد أحمد بن الصِّديق رحمه الله تعالى طبع في عالم الكتب بيروت سنة ١٤٠٨ بتحقيق حمدي عبد المجيد السَلَفي الذي أبدى إعجابه بالتخريج ووصفه بالنفاسة، ومع ذلك بخل عن كتابة تعريف بصاحب التخريج ولو في سطر واحد أو حتى الترحم عليه، بل كان المحقق السلفي سخياً في التعريض بالمخرج، ورحم الله الإنصاف والأخلاق.

ثُمَّ رحل مرة ثانية إلى القاهرة في ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين فسمع بها صحيح البخاري على الشيخ عمر بن حِمْدان، وأبي يوسف الشَعْبِيني، وعلى الأول مستدرك الحاكم، ولم يكن طبع إذ ذاك إلا الجزء الأول منه، وسمع منه حديث الرحمة بشرطه، وكثيراً من المسلسلات، ورافقه مدة ثلاثة أشهر كانا يدوران فيها على الشيوخ والأخذ منهم. وسمع على الثاني معجم الطبراني الصغير، وصحيح مسلم.

وعلى أبي الفضل أحمد بن رَافِع الطَهْطَاوي المسلسل بالأولية، ومسلسل عاشوراء بشرطه وسنن الدارقطني، ومسند الشهاب للقضاعي، وثبته الكبير المسمى «إرشاد المستفيد» في مجلدين، وحضر في «سنن النسائي» على أبي الثناء السُّبكي[1].

وحضر في جمع الجوامع على محمد شاكر الحنفي، وفي المنهاج بشرح الإسنوي على السُبكي المتقدم ثم لما رأى بطءَ سيره في الدرس أقبل على مطالعة كتب الأصول فقرأ إرشاد الفحول للشوكاني والمستصفى للغزالي واعتنى به حتى كان يستحضرُ جُلَّ مسائله.

[انتقاله لمذهب الشافعي:]

ثم تعلقت همته بمعرفة دلائل الأحكام المذكورة في كتب الفروع وصارت نفسُه لا تطمئن لفرع لا يعرِفُ أصله ومستنده، فبحث عن الكتب التي تطلعه على ذلك في مذهب مالك فلم يجد إلا منتقى الباجي، وهو جيدٌ ولكنه لا

(١) هو الشيخ العلامة محمود خطاب السُّبكي شارح سنن أبي داود رحمه الله تعالى.

يذكر كُلَّ الفروع ولا يعتني إلا بالقياس، فانتقل لمذهب الشافعي فقرأ على أستاذه الأول السَّقا شرح التحرير لشيخ الإسلام، وعلى شيخ الشافعية بالديار المصرية الشيخ محمد بن سالم النجدي الشرقاوي شرح الخطيب على أبي شجاع وكان لا يحضر عليه غالباً إلا العلماء، وعلى الشيخ محمد البجيرمي شرح المنهج لشيخ الأسلام زكريا الأنصاري بحاشية البجيرمي. ثُمَّ طُبع شرح المهذب للنووي فاكتفى به وأقبل على مطالعته والاشتغال به، وحفظ متن الزبد في الفقه الشافعي وطالع شرحها للفشني والرملي.

ولما علم والدُه بانتقاله لمذهب الشافعي فرح به كثيراً، وحضه على الاعتناء به وأثنى له عليه من جهة اعتناء أهله بالسنة، والميل إليها غالباً، وفضل الإمام الشافعي رضي الله عنه، وأمره مع ذلك أن لا يقطع صلته بمذهب مالك وأثنى عليه أيضاً من جهة كونه مذهب أهل المدينة، ورغَّبه في الاشتغال ببقية المذاهب الأخرى حضوراً ومطالعة.

وكان هو قبل انتقاله إلى مذهب الشافعي بنحو العامين رأى كأن الإمام الشافعي رضي الله عنه قدم إلى طنجة لزيارة شيخه الإمام مالك وأول ما نزل ذهب إلى محكمة القاضي وصلَّى بها ركعتين ثم قصد دار شيخه مالك وكأنه هو والد المترجم فظهر مصداق هذه الرؤيا بانتقاله لمذهبه.

[عنايته بالسماع على الشيوخ:]

ثم توجه للسماع من الشيوخ، واستجازتهم فأخذ عن شيخ الشافعية المتقدم بعد أن حضر عليه في مشكاة المصابيح أيضاً، وعلى محمد بن محمد الحلبي، وشيخ الجامع الأزهر أبي الفضل محمد بن علي الجيزاوي

الوراقي، ومحمد المأمون الإدريسي، ومحمد كمال الدين بن أبي المحاسن القاوقجي، ومحمد بن محمد علّيش، ومحمد بن الحسين التونسي، ومحمد ابن رجب السكندري، ومحمد بن مخلوف العدوي، وعبدالمجيد الشَرْنُوبي، وعويد بن نصر الخُزَاعي، وعبدالمعطي بن حسن السَّقا، وعبدالله بن محمود الإسنوي، ويا سين بن أحمد الخِياري المدني، وعبدالواسع اليمني، وعبدالوهاب بن أحمد نصار، وعوض بن محمد العَفْري المُعَمَّر، وعلي ابن حسن الواعظ، وعبدالرحمن قُرَّاعة مفتي الديار المصرية، ويوسف الرمالي، وأحمد الدلبْشاني، وقطب بن أحمد البِلْبيسي، ويونس بن موسى العطافي، ويوسف الشَبَرَابخُومي، وعبدالمجيد السَنَديونى، وعبدالعظيم بن إبراهيم السَّقا، وعبدالقادر الحواري، ومحمد البسيوني بن بسيوني عَسَل، والشيخ الجليل الشريف محمد بن عبدالهادي السقاف العلوي لما كان ماراً إلى الحج، وتدبج معه وكتب له إجازة مطولة تعرض له فيها لسند الطريقة الدرقاوية بطلب منه سماها: «الإتحاف بإجازة الحبيب محمد بن عبدالهادي السقاف».

وبعث له من الإسكندرية بالإجازة أبو محمد عبدالله بن صالح البنا باستدعاء شيخه عمر حَمْدان.

[الرحلة الثانية إلى بلاد الشام:]

ورحلَ إلى الشام فأخذ به عن الشيخ الإمام العارف أبي عبد الله محمد بن جعفر الكتاني ولازمه نحو الشهرين فسمع عليه حديث الرحمة بشرطه ثُمَّ مسلسلات عقيلة بأعمالها بقراءة العلامة توفيق الأيوبي، والأوائل العجلونية،

بقرية المزة بضريح دحية الكلبي بحضور جميع أولاده وأحفاده بقراءة المترجم وسمع عليه الكثير من تأليفه في «العلم المحمدي» لكونه كان يقرأ منه درساً كلَّ يوم الاثنين، وحضر دروسه في الهمزية بالجامع الأموي.

وأخذ على شيخ الشام بدر الدين بن يوسف، وحضر مجالس إملائه طول إقامته، وعلى توفيق الأيوبي وسمع منه مسلسلات عقيلة بأعمالها، وعلى محمد سعيد الفراء، وعطاء بن إبراهيم مفتي الشام، وصالح الآمدي الحنبلي، وصالح الحمصي، وعبدالكريم الحمزاوي، ومحمد أمين سُويد، وخالد الحمصي، وعبد الجليل الذرا، وابنته أم البنين آمنة، وعبد القادر المنيعي، ونجيب بن مصطفى كيوان، ومحي الدين البتي، وعبد القادر البتي، وعبد القادر الكيلاني، واجتمع بعبد القادر بدران ولم يسمع منه ولا استجازه حيث لم يعجبه حاله، وشَمَّ منه الاعتراض على الأولياء والصوفية، بل وقيل له: إنَّه لا يصلي فجلس معه برهة ثم خرج.

وببيروت على محمد بن أحمد أبي طالب، ومحمد بن أحمد الهَبْري، وعبد القادر القباني.

ثُمَّ زار بيت المقدس والخليل وبحث عن العلماء أهل الرواية فلم يجد منهم أحداً لإقفار تلك الديار وخرا بها من هذا المعنى، وذكر له بعضُهم وجود بعض من له الرواية متغيبا في ذلك الوقت.

ثم رجع إلى القاهرة وأقبل على الحديث وأكبَّ عليه كتابة وحفظاً ومطالعة ومذاكرة فكان لا ينام الليل ولا يضع جنبه على الأرض إلا بعد

الشروق بمدة ثم قبل الظهر بنحو ساعة يقبل عليه مرة أخرى ولا يخرج من البيت إلا لصلاة الجمعة واستمر على هذا الحال مدةً من السنين بالقاهرة والمغرب.

وافتتح صحيح البخاري سرداً مع إحضار فتح الباري ببيته مع السيد العربي العلوي المدني والشيخ محمد غُنيم العالم الأزهري، والشيخ محمد بن عبد السلام القَباني المدرس بالأزهر والشيخ موسى الزَيْلعي وقرأ معهم أيضاً تدريب الراوي شرح تقريب النووي.

[عودته للمغرب والبحث عن كتب المالكية التي تُعْنى بالدليل:]

ثُمَّ قدم والده إلى القاهرة لحضور مؤتمر الخلافة فرجع معه إلى المغرب بعد أن ذهب معه إلى بيت المقدس والخليل ثُمَّ إلى بيروت لزيارة شيخه سيدي محمد بن جعفر الكتاني. ولما حلَّ بالمغرب جدد البحث عن كتب المالكية التي تذكر الفقه بالدليل فأخبره والده بأن البيان والتحصيل لابن رشد يذكر جميع الفروع بدلائلها، وأنه موجود بمكتبة أولاد ابن صالح بقبيلة بني رزين الغمارية فشدَّ الرحلة لزيارة أضرحة أسلافه وطلب هذا الكتاب وإعارته للنسخ أو المطالعة فوجد يد الضياع والإهمال قد لحقت بنسخته الأندلسية العتيقة المجزأة على اثني عشر مجلداً ولم يبق منها إلا مجلدان أو ثلاثة[1]، فلما أعياه الوقوف على كتاب مستوف لمرغوبه من ذكر الفروع بالدلائل كما في كتب الشافعية وغيرهم شرع في وضع ذلك على رسالة ابن أبي زيد القيرواني وسماه «تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني من الفروع والمسائل». فكتب

---

(١) طُبع الكتاب فيما بعدكاملاً بدار الغرب الإسلامي، بيروت.

مجلداً إلى أول النكاح ثُمَّ عدل عن التطويل فشرع في آخر مختصراً فأتمه في مجلد وسماه «مسالك الدلالة على مسائل الرسالة».

[الرحلة الثالثة للقاهرة:]

ثُمَّ رحل مرة ثالثة إلى القاهرة بقصد الحصول على الكتب وأخذ معه أخويه السيد عبد اللّه والسيد محمد الزَمْزَمي بقصد الحضور في الأزهر، فتوجه في العشرين من شعبان سنة تسع وأربعين وأقام بها إلى سنة أربع وخمسين، وحَصَّلَ فيها نفائسَ من مخطوط الكتب ومطبوعها.

[الأمالي الحسينية:]

وأملى بالمسجد الحسيني مدة، وكان موعد جلوسه للإملاء كل يوم جمعة عقب الصلاة، وكانت أماليه طويلة للغاية، نحو عشرين صحيفة من القطع الكبير.

[تدريسه بالأزهر وتردده على مشايخ الرواية:]

ودرس بالأزهر مقدمة علوم الحديث لابن الصلاح، والنخبة للحافظ، ومنتقى الأخبار لابن تيمية ورحل في هذه المرة إلى دمياط، بقصد الأخذ عن شيخ علمائها أبي عبد اللّه محمد بن محمود الخفاجي فسمع منه حديث الرحمة المسلسل بالأولية، ودبج معه فأسمعه إياه أيضاً وأجاز كل منهما الآخر.

والخفاجي المذكور من خواص تلامذة أبي المحاسن القاوقْجي في العلم والطريق، وسمع مسلسلات القاوقجي المذكور بأعمالها عدا مسلسل العيد

وعاشوراء والضيافة على الأسودين، والجبن والجوز على أكبر أنجال صاحبها وهو: أبو النصر محمد بن أبي المحاسن، وسمعها معه أخوه السيد عبد الله، وذلك يوم الثلاثاء فاتح جمادى الأولى من سنة إحدى وخمسين، ، وأجاز له من الحجاز محمد على المالكي والمحدِّث الشهير عبد الستار الصديقي، وعلي ابن محمد الحبشي، وعمر بن أبي بكر باجنيد.

ومن اليمن إمامها يحيى حميد الدين، وقاضيها وشيخ علمائها الحسين العَمْري ومحمد زَبارة، وسمع منه حديث الرحمة بمصر، ومن حضرموت محسن بن ناصر، وفاطمة بنت أبي بكر العَلَوية، وسيدة بنت عبد اللّه العَلَوية وخديجة بنت محمد المِحْضَارية.

ومن بيت المقدس خليل الخالدي واجتمع به بالقاهرة، ومن فاس عبدالرحمن بن القرشي العلوي، والعابِد بن سُودَة، ومريم بنت جعفر الكتانية، والمهدي بن العربي العزوزي في آخرين.

ومن طرابلس محمد الشكْشُوكي ومحمد بن علي زَغْوان وغير هؤلاء.

[مكانته وثناء العلماء عليه:]

وسعى في طبع كثير من نفائس الكتب وحصلت له شهرة بالحديث وقصده علماؤه للسؤال والاستفادة بالمشافهة والمكاتبة، وشهدوا له بالفضل واعترفوا له بالتقدم حتى كان الشيخ محمد بخيت - وهو إمام الديار المصرية - لا يعتمد فيما يشكل عليه من مراتب الحديث إلا عليه، وسأله مرة وهو جالس على

الكرسي في درس التفسير - والمترجم بين يديه - عن حديث: «خذوا من القرآن ماشئتم لما شئتم» هل هو وارد، وما رتبته؟ وكان آخر سؤال وجهه إليه في آخر شعبان من سنة أربع وخمسين قبل وفاته بنصف شهر عن حديث: «دعوه يئن فإن الأنين اسم من أسماء الله». وطلب منه في الكتاب أن يتكلم له عن سند الحديث ورجاله ورتبته بإطالة[١].

وكان يباهي به في المجالس بين الأعيان والكبراء ويدعوه بالحافظ، ويقول: «أنا أسميه الشاب الشيخ لكونه شاباً في سنه وشيخاً في علمه، وعقله، وأعماله».

وكذلك كان شيخه السيد أحمد رافِع الطَهْطَاوي، يسميه بالحافظ ويصفه ببلوغ رتبة الاجتهاد، ودخل عليه مرة لزيارته بعضُ أعيان فاس وعلمائها فقال لهم: «أنتم لا تعرفون هذا وإن كان هو بلديكم» فصار يطريه بالمدح إلى أن وصفه بالاجتهاد المطلق، وكان هو قد استفاد كثيراً من المترجم في معرفة الرجال والأحاديث وأعانه بإحضار بعض الكتب التي أعوزه الحصول عليها في تأليف كتابه «إرشاد المستفيد»، كالمنح البادية في الأسانيد العالية، والغُنية للقاضي عياض ومُسلْسلات الدهْلوي وغيرها، وذكره من أجل ذلك في كتابه المذكور وصرح بأنه ممن أعانه على تأليفه واستجازه بمحضر الشيخ عمر حِمْدان بطلب من الثاني فأجاز لهما معاً.

ولما كان يسمع عليه ثبته المذكور ووصل إلى أسانيد الأربعين الودعانية، وجده أطالَ فيها فلما فرغ قال له: أنت من طبعك تحبُ التحقيق ولا تكتب إلا

---

(١) وقد أجابه بالجزء المشهور «الحنين بوضع حديث الأنين».

ما هـو حق فكيف كتبت الأسانيد إلى الأربعين التي هي موضوعة من أولها إلى أخرها؟ فاستغرب مقالته وقال: «لا علم لي بهـذا» فقال له المترجم: «راجـع كتـاب لسـان الميزان للحافظ والمقاصد الحسنة لتلميذه حتى تعرف رتبـة هـذه الأربعين» وعَيَّن له كتباً أخرى ثُمَّ خرج فلما رجع إليه في اليوم الثـاني قـال له: جزاك اللّه عني خيراً فقد أنقذتني من ورطة عظيمة أوقعني فيها تقليدي لمن ذكر أسانيدها عن الحفاظ الكبار كالمزي والذهبي والعراقي. فقال له المترجم: اصطلاح أولئك الحفاظ يسوغ لهم ذلك لكونهم يقصدون الاستيعاب معتمدين على معرفة الأصل من جهة أخرى فالذهبي مثلاً صرح بوضع الأربعين المذكورة في الميزان مراراً متعددة ولكنه أورد سندها في معجمه بقصد الجمع والإفادة بخلاف شرطك واصطلاحك. فحذف المذكور ذكر أسانيدها من كتابه بالمرة.

وكذلك كان يبالغ في الثناء عليه الشيخُ عمر حِمْدان المدني ويستفيد منه وأما غير شيوخه من علماء مصر فلا يحصى من كان يستفيد منه، ويتردد عليه لأجل ذلك خصوصاً الشيخ يوسف الدِّجوي في مقالاته العلمية وردوده على رشيد رضا، والوهابية، وغير ذلك.

وكان المترجم يجيبه ويفيده بكتابات مطولة لو جمعت لكانت كتاباً حافلاً. وكتب الشيخ الدجوي إليه مرة يهنئه برمضان بأبيات، قال فيها:

رمضـان عيـد المؤمنيـ ... ن وأنـت خير المـؤمـنين

فـاهنــأ ودم متمتـعــا ... برضـــاء رب العــالمـين

لا زلـت أفضـل مـؤمــن ... في الصـائمين القـائمـين

وأجـل أربـــاب التقــى   في الراكعين الساجـدين

وأعزَّ مـن يرقى العــلا   عـنـد الكـرام الكــاتبين

ولما حَجَّ المُحدِّثُ الشيخ عبد الحي الكتاني وزار مصر اجتمع بالمترجم وأبدى عجبه الشديد له من حفظه واطلاعه وكان لا يفارقه مدة إقامته بمصر وقال يوماً في المجلس: «إنَّ فلانا مما يتعجب من اطلاعه على صغر سنه، كثر اللّه في المسلمين من أمثاله».

وكان والده يجله كثيراً ويثني عليه في المجالس ويبشره ببشائر عالية وينزله منازل سامية، وأخبره بأنه سيحصل له الفتح الكبير في الولاية وأن ذلك سيكون على يديه بدون كبير تعب ولا حصول مِنّة للغير وكان يقول: «لا تهتم بشيء من أمر ذلك وماعليك إلا أن تقبل على خدمة السنة والعمل بها ونحن نشتغل لك باطناً، فلا تشعر يوماً إلا وأنت في الذروة العليا بل لو حدثتك بما ستحصل عليه لما قبله عقلك الآن».

وكتب إلى والده يخبره بأمر حصل له منه ضيق وضرر فأجابه بقوله: وقد أحسست غاية ما أخبرت به لما أن الولد البار مع والده كالتلميذ الصادق مع الشيخ المحقق الواصل الكامل لا يكتم عنه شيئاً من أحواله كيفما كان ذلك الحال قبيحاً أو مليحاً يتوجه الشيخ إلى إصلاحه ودوائه وأنت والحمد لله نظرتنا فيك كبيرة فوق نظر الشيخ الكامل للتلميذ الوارث الصادق بل أرجو من الله أن لا يكلك إلى أحد كائناً من كان ويجعل فطامك وتربيتك وكمالك على أيدينا وبواسطتنا من غير أن تتحمل مِنّة لمخلوق كما وقع ذلك للقطب الكامل سيدي محمد البكري الصديقي مع والده أبي الحسن فإنه كان

يقول له: «لا أتركك تحتاج إلى أحد بعدنا»، فكان الأمر كما قال، وكما وقع ذلك أيضاً لسيدي علي وفا مع والده رضي اللّه عنهم وعنك.

وكتب إليه مرة كتاباً قال فيه أثناء كلام: «وقد عاملنا الله باللطف الكبير والسر الواضح الشهير، وسترون ذلك عياناً إن شاء الله تعالى بل سترون من فضل الله تعالى مالا يخطر بالبال ولا يمر بالخيال فطيبوا نفساً واشتغلوا بأموركم وتأليفكم واغتنموا في ذلك الوقت قبل أن تزاحمكم أشغال لا يمكنكم فيها ذلك».

ولما شرع في الردِّ على الشنقيطي، وهو بمصر كتب إلى والده يطلب منه إرسال كتاب شيخه[1] في الموضوع ليستعين به فأجابه بقوله: «وردُكم على الخضر أحسنتم فيه غاية وليس في رسالته مايهم حتى يصعب الرد عليه وخصوصاً فيما يرجع للحديث وفنونه وصناعته فإنه صفر اليدين من ذلك بلاشك وسيعرف قدره في ذلك بظهور ردك عليه إن شاء اللّه تعالى ويتحقق عند رؤيته أن في الرجال بقايا، وفي الزوايا خبايا ورسالة أستاذنا رضي الله عنه ستصلك هي أو الباب المتعلق بنصوص الفقه إذ هو الذي تحتاجه، وأما ماكتبه في الأحاديث فَنَفْسُك فيه أعلى من ذلك وعند الوقوف عليه تعرف ذلك يقيناً».

وكان يحبُّ كتابته في الحديث، ويحبُّ قراءةَ كلِّ مايكتبه فيه من مؤلف وجواب ويوصيه المرة بعد الأخرى في إرسال كلِّ ما يكتبه من ذلك فإذا قرأه حافظ على نسخة منه في محافظه وربما سمع بجواب أتى منه لبعض تلامذته ولم تصله منه نسخة فيرسل إلى من جاءه يطلبه الوقوف عليه.

---

(١) شيخه هو العلامة الإمام محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله تعالى، وكتابه هو «سلوك السبيل الواضح لبيان أن القبض في الصلوات كلها مشهور وراجح».

ولما وقف على بعض أجوبته للشيخ الدجوي فيما يسأله عنه كتب إليه يقول: «وجوابك للشيخ الدجوي في غاية التحقيق فقد راجعته من أوله إلى آخره بمجرد وصوله فلله درك من محقق ناقد فمثلك يتصدى للكلام في الحديث ورجاله وتحقيق فنونه زادك اللّه بسطة فيه، وفي غيره من علوم الشريعة المطهرة وجعلك عيناً من عيون اللّه يستقي منها أهل المشرق والمغرب».

وكان يسأله أيضاً عن الحديث ورتبته الصناعية وتخريجه بل ما كان يُسألُ عن حديث في أواخر أيامه إلا وأحال السائل عليه أو قال له: «سأكتب لولدي سيدي أحمد وما أجاب به أطلعك عليه».

وبسبب أسئلته ألف أجزاءً في أحاديث خاصة كحديث «داووا مرضاكم بالصدقة» وحديث «أنا مدينة العلم وعلي بابها» وغيرهما.

ومن ذلك أنه ـ أي والده ـ كتب إليه يقول في حديث «لو دليتم بحبل إلى الأرض السابعة لهبط على اللّه»: من أخرجه غير الترمذي وما رتبته ولفظه عند مخرجيه فإنه طال العهد به؟.

وكتبَ إليه مرةً يسأله عن حديث «ليس منا من لم يتعاظم بالعلم» الذي ذكره ابنُ الحاج في حواشيه على المكُودي حديثاً، وتبعه على ذلك سيدي المهدي الوزّاني في حواشيه على الاستعارة وغيرها من حواشيه وأوّلا ظاهره المقتضي لطلب التعاظم بالعلم وهما تبعا في ذلك الطرنباطي في حواشيه على الخلاصة، وثلاثتهم لم ينسبوه لكتاب من الكتب الحديثية على عادتهم في ذكر ما يذكرونه من الأحاديث. فانظر هل تجده عند أحد من المخرجين المسندين ولابد؟.

وكتب إليه مرة أخرى يقول: سألني سائل عن معنى حديث «لا يبطل حق امرئ مسلم وإن قدم» عن رتبته ماهي وعن مخرجه؟ فقلت ـ أي والده ـ أما معناه فهو أن حق المسلم لا يضيع بقدمه، فمن كان له حق على شخص بحجة ثابتة شرعاً وسكت عن طلبه المدة الطويلة كالثلاثين والأربعين سنة ثم قام يطلبه فإنه يستحقه ولا يهدر حقه بسكوته عن طلبه المدة المذكورة، وأما رتبته من الصحة أو الحسن أو الضعف ومن أخرجه من المحدِّثين فإني أعرف الحطابَ ذكره آخر الشهادات من شرحه على الشيخ خليل ناقلاً له عن ابن رشد ولم ينسبه لأحد ولا تكلم على رتبته وكذلك فعل من نقل عنه كالزُّرقاني بالمحل المذكور، والشيخ الرُهُوني في حواشيه عليه، والشيخ التاوُّدي صدر به البيوع من شرحه على التحفة، والشيخ التَسُولي، وجميعهم يسلم الاستدلال به على معناه الذي قررناه. ثم دخلني شك فيما ذكرته فقلت للسائل: أمهلني حتى أراجع من أشرنا إليهم فربما يكون وقع لي نسيان وغداً نجتمع إن شاء اللّه تعالى فراجعت الحطاب ومن تبعه ممن أشرنا إليهم فوجدت الأمر كما ذكرته للسائل؛ لم يتكلم واحدٌ منهم على رتبته ولا نسبه واحد منهم إلى مُخَرِّج وبناء على هذا أُحبُّكَ ـ أحَبك اللّه ورسوله ـ أن تراجعه في مظان وجوده من كتب الأحكام وغيرها وما يتحصل لك فيه عرِّفنا به عاجلاً فإنَّ للسائل غرضاً أكيداً في معرفة رتبته.

وكتب إليه أيضاً يقول: ومنه أن سيدي العربي الغربي وسيدي المختار ومن معهم من الاخوان يطلبون منك أن تكتب لهم عن الحديث الذي قال فيه صلى اللّه عليه وآله وسلم: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وتبين لهم رتبته، فإن الرماني وقعت له معهم مجادلة كبيرة في شأنه وادعى أن الحديث

موضوع وأن الصوفية لا دليل لهم في المجاهدة والرياضة وأنهم ضالون مضلون في ذلك وأن الإسلام هو القيام بالفرائض الخمس لا غير، وأرعد وأبرق في ذلك فطلب منه سيدي العربي أن يكتب الحديث ويبين من قال بوضعه فخاف منك وغاية ما قال لهم لما طالبوه بالحجة أن الشوكاني ذكره في موضوعاته إلى غير ذلك مما يطول.

ولما اجتمع بشيخه الإمام المحدِّث العارف سيدي محمد بن جعفر الكتاني بدمشق سأله عن الأبيات المنسوبة لحسان بن ثابت رضي اللّه عنه؛ أنه قال عند رؤية النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم والقيام له:

قيامي للعزيز علي فرض وترك الفرض مالا يستقيم

إلى آخر الأبيات المشهورة وقال له: هل رأيت من خرجها؟ وهل نسبتُها لحسان صحيحة؟ وكأن الشيخ السائل رحمه اللّه لم يقف على كتاب الترخيص بالقيام للنووي الذي عزا فيه هذه الأبيات لبعض الحفاظ عن أبي موسى المديني أنه أنشدها لذلك البعض أو وقف على ذلك ونسيه لطول العهد فقد سئل عن حديث فضل عكا وغفران ما تقدم وما تأخر من ذنوب من شرب من عين بها، إنك ذكرته في كتابك شفاء٣٦فأنكره وقال: إنه ماسمع به فقال له المترجم: الأسقام، فاعترف بأنه نسي. وسأله المترجم عن حديث «من كانت له سريرة صالحة نشر اللّه عليه رداء منها يعرف به» وهو من أحاديث القضاعي، وقال له: رأيت في أسماء مؤلفاتك أن منها تخريج أحاديث القضاعي لم يكمل فإن كنت وصلت إلى هذا الحديث وهو في الثلث الأول منه فتفضل بإطلاعي على ماكتبته في تخريجه. فأخرج ما كتبه من ذلك وإذا الحديث المسؤول عنه من

آخر ما كتب عليه وعزاه إلى مسند أحمد والحلية لأبي نعيم فقال له المترجم: هذا الحديث لا يوجد في مسند الإمام أحمد أصلاً وأما الحلية فلم نرها لأنها كانت لم تطبع بعد فتوقف. ثم في اليوم الثاني قال له: قد راجعت مسند عثمان من مسند أحمد مرتين فلم أجد الحديث فيه وأنا قلدت في عزوه رمز الجامع الكبير ثم ضرب على عزوه لمسند أحمد ووقعت له معه مسائل من هذا القبيل.

وهكذا كان يعترف له بالتقدم في الحديث والتمكن منه ومن علومه كل الأفاضل الأكابر من شيوخه وغيرهم.

[تلقينه الأذكار والأوراد:]

وكان والده يتعاهده بالتهذيب وتلقين الأذكار المرة بعد الأخرى بحسب الطوارئ والأحوال. فبعد مالقنه الورد العام للطريق لقنه بعد ذلك أيضاً «حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم» سبع مرات دبر كل صلاة «وحسبي الله ونعم الوكيل» مائة في الصباح وأخرى في المساء وبعدها: «باسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولافي السماء وهو السميع العليم» ثلاث مرات. «أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق» ثلاث، وأمره مرة أخرى بالمواظبة على قراءة حزب البحر وحزب النووي صباحاً ومساء وكتب عقيب ذلك: «فإن المواظب عليهما لا تصيبه عين ولا سحر ولا غيرهما وخصوصاً إذا كان بإذن، وقد أذناك في قراءتهما كما آذننا أشياخنا عن أشياخهم إلى الشيخين؛ القطب الغوث سيدي أبي الحسن الشاذلي، وبقية السلف المجمع على ولايته وعظم شأنه محي الدين النووي

رضي الله عنهما وعنك، وحافظ عليهما ولا بد حضراً وسفراً ولو كنت ماراً في الطريق إن ضاق عليك الوقت».

ولقنه لوحشة أصابته أن يقرأ آية الكرسي عقيب كل صلاة عشر مرات وبعد صلاة الصبح والعشاء عشرين مرة وبعدها «اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك في قبضتك ناصيتي بيدك عدل فيَّ قضاؤك ماضٍ فيَّ حكمك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور بصري وجلاء همي وذهاب حزني» ثلاث مرات، وألم نشرح لك صدرك ثلاث مرات، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاث مرات وقال له: بقراءة هذا تزول الوحشة ولا يبقى ما تجده في قلبك، وإن أمكنك أن تصل إلى ثلاثمائة بين الليل والنهار من آية الكرسي فافعل ولا بد لاسيما في جوف الليل، وإن وقع ورأيت شيئاً فلا تخف وإن قوي عليك ذلك فاشتغل بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى يزول ذلك.

[تجديد بناء الزاوية الصديقية:]

ولما رجع من مصر عقيب وفاة والده سنة أربع وخمسين هدم الزاوية التي دفن بها والده وجدد بناءها وزاد فيها بيتاً كان ملاصقاً لبابها. والمراحيض التي كانت داخلها جعلها في موضع كان اصطبلاً للدواب بأسفل منها، وبنى على والده قبة عظيمة، ثُمَّ بعد إتمامها جلب يفطاً من القاهرة فيها آيات وأحاديث في فضل الذكر مكتوبةً بماء الذهب ووضعها بمحل إقامة الحضرة منها إشارة إلى دليلها ودليل الإكثار من الذكر.

[عنايته بنشر السنة، وتركه التقليد:]

وأقبل المترجم على الاشتغال بالسنة والدعوة إليها ونبذ التقليد فيما خالف فيه المذهبُ صريحَ السنة، بعد أن نبذ هو التقليد بالكلية ولم يبق يقلد أحداً، لا من الأئمة الأربعة ولا من غيرهم، بل صار يدعو إلى ذلك في المجالس والدروس والمحافل وغيرها بالفعل والقول مع الدليل وإقامة البرهان على تحريم التقليد، ووجوب الاجتهاد والعمل بالكتاب والسنة. وبسبب دعوته دخل في الحق قوم أراد اللّه هدايتهم وفتح بصيرتهم فعرفوا أن الحق هو ما يدعو إليه وأن التقليد جهل وضلال فنفعهم اللّه بذلك وكانوا في صحيفته، وأمر الفقراء بتثنية: «قد قامت الصلاة» في الإقامة وبذكر «السيادة» عند اسم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في الأذان والإقامة، وبإرخاء العذبة، وقراءة سورة السجدة صبح يوم الجمعة وغير ذلك.

وحضر جنازة بعض الأشراف الوزانيين فقدموه للصلاة عليه فكبَّر عليه سبعاً لكونه من أهل الأحوال ومن آل البيت النبوي فحصل من الناس كلام كثير وقال وقيل. وكان في أيام قراءته لسنن الترمذي بالجامع الكبير تعرض في ثاني درس بعد الجنازة للمسألة وأملى فيها ما قطع لسانَ كل جاهل ثم ألف كتاباً في المسألة سماه «الإجازة للتكبيرات السبع على الجنازة».

[الحج والزيارة وأخذه عن أكابر علماء الحرمين:]

وحَجَّ سنة ست وخمسين وركب في الطائرة من المغرب إلى القاهرة ومنها بالبحر إلى الحجاز وأخذ به عن جماعة فأخذ بمكة عن محمد علي المالكي الذي كان أرسلَ إليه بالإجازة من قبل، وسمع منه حديث الرحمة

بشرطه وناولَه عدةَ مؤلفات له، ومن العلامة المحدِّث عبد اللّه بن محمد غازي الهندي وسمع منه حديث الرحمة وغيره، ومن علي بن محمد الحبشي، ومن العلامة المحدِّث المتضلع عبيد اللّه السندي، وهو مجوسي في الأصل أسلم صغيراً ببلاده ولذلك يكتب في إمضائه عبيد اللّه بن الإسلام، ومن أحمد بن محمد الأدرمي الهندي أحد تلامذة الشهاب دحلان ومن عَيْدروس بن سالم البار، ومن سيف الرحمن الأفغاني، وعبد العزيز بن أبي القاسم.

وبالمدينة المنورة من العلامة المُسْنِد المحدِّث عبد الباقي بن علي اللكنوي صاحب الثبت المطبوع وغيره من المؤلفات، ومن أحمد بن مصطفى البِساطي، ومحمد بن عثمان الداغستاني، وعبد القادر شلبي الطرابلسي ومن الشيخة المُعَمرة أمة اللّه بيكَم بنت العلامة المحدِّث عبد الغني بن أبي سعيد الدهلوي ولعلها آخر أصحابه في الدنيا.

واجتمع بملك الحجاز عبد العزيز السعودي وأعطاه سيارة خاصة ذهب فيها إلى المدينة المنورة.

[دخوله ثغر عدن:]

ولما رجع قصد اليمن لزيارة من به من العلماء والصالحين لا سيما من بني علوي. فلما وصل إلى عدن واجتمع ببعض الفضلاء حذروه من الدخول إلى داخل اليمن في ذلك الإبان لشدة الحر الذي لا يحتمله بدنُه فرجع إلى المغرب ولم يقم إلا خمسة أشهر.

[العمرة الرجبية، والزيارة :]

ثم رجع في رجب بقصد زيارة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ودخل مكة أيضاً واعتمر ثلاث عُمَرٍ، منها واحدة من الجعرانة وأخرى من التنعيم بمعية شيخه الشيخ عُمَر حمدان وبعض الأفاضل الحجازيين ثم قصد المدينة المنورة فأقام ثمانية أيام سمع فيها مسلسلات عقيلة بأعمالها على الشيخ عمر حمدان وكان قد سمع منه وهما بمكة المسلسل بإجابة الدعاء عند الملتزم وهما واقفان عند الملتزم وحصل وصف التسلسل به في الحال فإنه دعا عنده بدعوات رأى الإجابة في أكثرها في الحال ولا زال يرجو من اللّه تحقيق الباقي.

[حجة ثانية، ثالثة :]

ثُمَّ منّ اللّه تعالى عليه بحجة أخرى في سنة سبع وستين ذهب لأدائها في الطائرة التي وصلت بهم من المغرب إلى جدة في ليلة ونصف يوم ورجعت بهم من جدة إلى المغرب في يوم وثلث ليلة ومكث في هذه الحجة من يوم خرج إلى أن رجع تسعة وعشرين يوماً وكانت حجة مباركة تقبلها اللّه منه بفضله ثم منّ اللّه تعالى عليه بحجة ثالثة في سنة ثمان وستين وكانت كالتي قبلها في الطائرة أيضاً وفي عدد أيام الغيبة فيها وكانت حجة مباركة حضرها من الخلق مالم يعهد له نظير منذ سنين، تقبلها اللّه تعالى بمنه.

مؤلفاته التي لم يتقدم ذكرها :

وألف إلى الآن من المؤلفات إضافة إلى ما تقدم ذكره.

- مطالع البدور في بر الوالدين، وهو مطبوع بطنجة.

- المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة، وهو مطبوع بفاس[1].

- إبراز الوهم المكنون في الرد على ابن خلدون في طعنه في أحاديث المهدي، وهو مطبوع بدمشق.

- رفع لسان المنصف السالك، وقطع لسان المتعصب الهالك بإثبات سنية وضع اليدين في الصلاة على مذهب الإمام مالك، مطبوع بمصر.

- المثْوني والبتار في نحر العنيد المعثار الطاعن فيما صح من السنن والآثار، مطبوع بمصر وهو ردٌّ على محمد الخضر الشنقيطي في إنكاره سنية القبض في الصلاة.

- فتح الملك العلي بصحة حديث: باب مدينة العلم علي، مطبوع بمصر.

- الصواعق المنزلة على رسالة الرحمة المرسلة.

- الاستعاذة والحسبلة ممن صحح حديث البسملة، مطبوع بمصر.

- إرشاد المربعين إلى طرق حديث الأربعين، مطبوع بها أيضاً.

- شوارق الأنوار المنيفة بظهور النواجذ الشريفة، مطبوع بها أيضاً.

- إياك من الاغترار بحديث: اعمل لدنياك.

- مختصره المسمى سبل الهدى[2].

---

(١) ثم أعاد طبعه فضيلة الأستاذ العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غده رحمه الله تعالى ضمن ثلاث رسائل في الدعاء عقب الصلاة.

(٢) مطبوع بمصر وبيروت.

- صفع التياه بإبطال حديث: ليس بخيركم من ترك دنياه.

- وسائل الخلاص من تحريف حديث: من فارق الدنيا على الإخلاص.

- هداية الرشد بتخريج أحاديث بداية ابن رشد، كتب منه مجلداً إلى العيدين[١].

- البيان والتفصيل لوصل ما في الموطأ من البلاغات والمراسيل.

- المستخرج على مسند الشهاب - يسمى بالإسهاب - وهو بالأسانيد على طريق المستخرجات لا على طريق التخاريج، تم منه مجلدان كبيران والباقي مجلد أيضاً[٢].

- مفتاح الترتيب لأحاديث تاريخ الخطيب، مطبوع بمصر.

- مفتاح المعجم الصغير للطبراني.

- مفتاح مسند الإمام أحمد، تم منه الأول والثاني.

- الأربعون البلدانية للطبراني

- اختصار مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا.

- مسند المجالسة للدينوري.

- المؤانسة بالمرفوع من أحاديث المجالسة.

- الموضوعات في مجلد.

---

(١) ثم أكمله وطُبع - ببيروت - مع البداية في ثمانية مجلدات.

(٢) وقد أتمه فيما بعد.

- تحقيق الآمال في تحقيق زكاة الفطر بالمال[١] .

- الأخبار المسطورة في القراءة ببعض السورة .

- شد الوطأة على منكر إمامة المرأة .

- الاستعاضة بحديث وضوء المستحاضة .

- الطرق المفصلة لحديث أنس في البسملة .

- الكسملة بتحقيق الحق في أحاديث الجهر بالبسملة .

- كتاب الحسن والجمال والعشق والحب .

- نيل الطالب ما يرجوه من جمع الطرق والوجوه من حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه .

- جزء في حديث الممسوخين .

- جزء في نبوة خالد بن سنان والخضر والنساء .

- رفض اللي بتواتر حديث من كذب عليّ .

- الرغائب في حديث ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

- المسهم بطرق حديث طلب العلم فريضة على كل مسلم[٢] .

- رفع المنار بطرق حديث من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار[٣] .

- تعريفُ الساهي اللاهي بتواتر حديث «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه» .

---

(١) طبع بالقاهرة وببيروت، واختصره بعضهم .

(٢)، (٣) طبعا بالقاهرة ضمن مجموع له .

- المنتده بتواتر حديث «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» .

- زجر المؤمن بطرق حديث «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» .

- موارد الأمان بطرق حديث : الحياء من الإيمان .

- المناولة بحديث المطاولة .

- كشف الرين بطرق حديث : مَرَّ على قبرين .

- مسامرة النديم بطرق حديث : دباغ الأديم .

- الإلمام بطرق المتواتر من حديثه عليه الصلاة والسلام ، لم يتم ، وسيطبع إن شاء اللّه في ثلاث مجلدات ضخام .

- الأحاديث الميزانيات وهي التي أسندها الذهبي في الميزان .

- المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي في ستة مجلدات[١] .

- الزواجر المقلقة لمن أنكر التداوي بالصدقة .

- جهد الأيمان بطرق حديث الإيمان .

- الهدى المتلقى بطرق حديث : أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً .

- الأربعون المتتالية بالأسانيد العالية .

- المنحة لما اختلف فيه من الوضع إلى الصحة .

- مجمع فضلاء البشر من أهل القرن الثالث عشر «مجلدان» .

- المؤذن بأخبار سيدي الحاج أحمد عبد المؤمن .

---

(١) طبع بالقاهرة .

- إنالة الوطر برفع الحرج وإزالة الخطر عمن جمع بين الصلاتين في الحضر من غير مرض ولا خطر في عشر كراسات[١].

- فصل القضاء في تقديم ركعتي الفجر على الصبح عند القضاء.

- مناهج التحقيق في الكلام على سلسلة الطريق.

- تشنيف الأذان بأدلة استحباب السيادة عند ذكر اسمه صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة والإقامة والأذان في عشر كراسات[٢].

- البرهان الواضح الجلي في تحقيق انتساب الصوفية الى علي، مجلد[٣].

- بيان الحكم المشروع بأن الركعة لا تدرك بالركوع، عشر كراسات.

- اختصاره المسمى: نفث الروع[٤].

- المستخرج على شمائل الترمذي في مجلد.

- الإشراف على الأربعين المسلسلة بالأشراف، في أربع كراسات.

- تبيين البله ممن أنكر حديث: ومن لغا فلا جمعة له[٥].

- العقد الثمين في حديث: إن الله يبغض الحبر السمين.

- الإفضال والمنة برؤية النساء لله في الجنة[٦].

---

(١) طبع بالقاهرة في مجلد.

(٢) طبع بالقاهرة في مجلد.

(٣) طبع بالقاهرة في مجلد.

(٤) طبع بالمطبعة المهدية بتطوان.

(٥) طبع ببيروت.

(٦) طبع بالقاهرة.

- شهود العيان بثبوت حديث: رفع عن أمتي الخطأ والنسيان.
- إحياء المقبور من أدلة بناء المساجد والقباب على القبور[١].
- الإقليد في تنزيل كتاب الله على أهل التقليد.
- المغير على الأحاديث الموضوعة في الجامع الصغير[٢].
- الأمالي المستظرفة على الرسالة المستطرفة للكتاني.
- العتب الإعلاني لمن وثق صالحاً الفلاني.
- المعجم الوجيز للمستجيز[٣].
- مسند الجن في ستة كراريس.
- جؤنة العطار في طرف الفوائد ونوادر الأخبار[٤].
- الاستئناس في تراجم فضلاء فاس، مجلدان.
- صدق المهجة في أخبار طنجة.
- صلة الوعاة بالمرويات والرواة.
- كشف الخبي بجواب الجاهل الغبي.
- هدية الصغراء بتصحيح حديث التوسعة على العيال يوم عاشوراء[٥].
- الحنين بوضع حديث الأنين.
- تعريف المطمئن بوضع حديث دعوه يئن.
- تحسين الفعال بالصلاة في النعال[٦].

---

(١) طبع بالقاهرة، ثم صور مرات.

(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) طبع بالقاهرة.

- مسالك الدلالة على مسائل الرسالة في مجلد[1].

- أجوبة ورسائل لو جمعت لجاءت في مجلد أو مجلدين.

- المشيخة في مجلد متوسط[2].

ما شرع فيه من المصنفات ولم يكمله:

وأما ماشرع فيه وكتب منه الكراسين والثلاثة والأربعة فشيء كثير:

- كشرح الترغيب والترهيب.

- وشرح مسلم.

- وشرح سنن أبي داود.

- وشرح أذكار ابن عجيبة[3] وغير ذلك. وكان السبب في وضعه شرحاً على مسلم أن والده رأى كأن قائلاً يقول له: اشرح صحيح مسلم، فقال له: سآمر ولدي سيدي أحمد بشرحه. فأمره بشرحه وأن يجمع بين كتابة النووي والحافظ في الفتح فيما اتفق عليه البخاري ومسلم.

[محبته للسادة الصوفية واعتقادهم:]

وله اعتقاد شديد في المجاذيب وأرباب الأحوال وصحبة في الأولياء والصالحين والفقراء وتعظيم لشأنهم وميل بالطبع إليهم إلا ما كان من الدخلاء فيهم والكذابين في الانتساب إلى طريقهم، ولو اتفق أكثر الناس على

---

(١) طبع بالقاهرة.

(٢) لعله يقصد البحر العميق في مرويات ابن الصديق فإنَّه ضمنه غالب شيوخه.

(٣) ولكن هذا أكمله.

اعتقادهم فإنه لا يغتر بالأكثرية وإنما يميل مع فراسته وقلبه الذي أمره الشارع باستفتائه والذي ما خانه ولا كذبه في شيء منذ عرف يمينه من شماله، وهو مع فرط اعتقاده في الأولياء وشدة محبتهم وتعظيمهم لا يقلدهم في كل مايقولون إذا علم الحق في خلاف قولهم ولا يضيره مخالفتهم بل ولا الرد عليهم إذا كانت السنة الصحيحة الصريحة في غير جانبهم ولا ينزه لسانه عن الطعن في الدخلاء الكذابين الدجالين المدعين للولاية بل يرى ذلك من الجرح اللازم والتحذير الواجب دفعاً للاغترار ولا يستحسن رأي من يقول: يجب تعظيم من انتمى لجانب الأولياء ولو كان مدعياً كاذباً. ويراه غلواً وإفراطاً وميلاً عن الجادة والصواب. هذا معتقده الآن وقد يتغير عنه إن رأى الحق في خلافه وظهر له دليله فإنه لا يتعصب لرأي ولا يثبت على باطل.

ويرى الطرق الموصلة إلى الله تعالى كلها شريفة فاضلة ولكنه يميل إلى الشاذلية الدرقاوية ويفضل مشربها على سائر المشارب، ويميل في الاعتقاد إلى طريق السلف بل لا يرى الحق والنجاة إلا في اتباعها وإمرار النصوص على ما جاءت مع التفويض والتنزيه.

[محبته لآل البيت عليهم السلام:]

ويعتقد أن أفضل هذه الأمة على الإطلاق بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاطمة والحسن والحسين وأبوهما ويقول: إن كانت الأفضلية بالنسب فهم أشرف الخلق نسباً، وإن كانت بالثواب في الآخرة، فما نال أحد ثواباً إلا بمحبتهم والاقتداء بجدهم، ومن المحال أن يكون بشر من هذه الأمة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبضعته فاطمة وريحانتاه

من الدنيا دونه بل وبقية بناته صلى الله عليه وآله وسلم، ومن يعتقد خلاف هذا فهو ملعبة بيد الأغراض والنحل والأهواء المنحدرة إليه من أوائل النواصب والخوارج الذين عرفوا كيف يروجون أهواءهم واتقنوا طرق ذلك حتى جعلوها من أصول الدين التي يبدع ويفسق مخالفها، وجرى له في ذلك مع علماء العصر بمصر وغيرها مناظرات، كما وقع له مع غيرهم في غير ذلك حوادث ومجريات لا محل لذكرها هنا، بل تذكر في الفهرست الجامع لجميع الأخبار والأحوال، والحمد لله رب العالمين[١].

---

(١) هذا آخر ما وجدته من ترجمته بخط يده والتي كتبها ضمن الباب التاسع من كتابه «سبْحة العقيق من ترجمة الشيخ سيدي محمد بن الصِّديق».

وأرجح أنه كتب هذه الترجمة أثناء تواجده بالمغرب، فإن من المعروف أن السيد أحمد رحمه الله تعالى كان قد أعلن الجهاد ضد الكفار وتعرض للسجن والنفي والغرامة ومصادرة أملاكه ثم قضى ثلاث سنوات ونصف في الإقامة الجبرية ثم بعد خروجه من هذه المحنة تعرض لمضايقات عنيفة من عملاء الاستعمار من العلمانيين والعصريين المفسدين ومن ثَّم هاجر من المغرب مضطراً فاراً بنفسه وبدينه إلى القاهرة.

وقد قضى بالقاهرة بعد هجرته نحواً من ثلاث سنوات وثلاثة أشهر تقريباً، فإنَّه خرج من المغرب سادس ربيع الأول من سنة سبع وسبعين وثلاثمائة وألف وتوفي فاتح جمادي الثانية سنة ثمانين وكان خلال تلك الأعوام قد حَجَّ مرتين واعتمر وزار روضة المصطفى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مراراً ودخل الشام دمشق وحلب وغيرها لزيارة سيدنا إبراهيم وسيدنا إسحاق وسيدنا يعقوب وغيرهم من الأنبياء والصحابة، واحتفل به علماء الشام وأكابره في هذه المرة وأكرموه غاية الإكرام واستقبلوه عند دخولها على بعد مائة كيلو متر فأزيد وطلبوا منه الإقامة هناك.

وقد استجازه في هذه الرحلة جميع من حضره من علماء الشام من أصغر عالم إلى مفتي القطر ولما حاول الركوب ازدحم الطريق الواسع بمن أتى لوداعه ثم رحل للسودان واجتمع بكثير من علمائه وحصلت له معهم مناظرات وألقى عليهم درساً=

= حول قول الله تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه..﴾ الآية.

وبعد عودته للقاهره مرض مرضاً شديداً ألزمه الفراش، وفي يوم الأحد فاتح جمادي الثانية سنة ثمانين وثلاثمائة وألف أجاب داعي ربه فانتقل من دار الفناء إلى دار البقاء عليه من الله تعالى وافر الرحمة وأنزله رضوانه، وكان انتقاله بحضور جمع من تلاميذه وقد حصلت له كرامة كبيرة عند خروج روحه، ودفن بمقابر آل عواد بالخفير بالقاهرة، وقبره معروف ويزار، ولم يعقب، أما مكتبته النادرة وأصول مصنفاته التي بخط يده فقد أوقفها على دار الكتب المصرية.

رحم الله سيدي أحمد بن الصِّدّيق وأثابه رضاه.

القسم الثاني

قراءات في فكر السيد أحمد بن الصِّديق الغُمَاري

تمهيد :

كان العلامة الفقيه الحافظ المحدِّث الناقد المصنِّف الشريف السيد أحمد بن محمد بن الصِّديق الغُمَاري المولود سنة ١٣٢٠هـ، والمتوفى سنة ١٣٨٠هـ عن تسع وخمسين سنة طالبَ حقٍ، باحثاً عنه بشغف وإصرار لا تعوزه الآلة الكاملة والتمكن في كافة الفنون الشرعية ومتعلقاتها مع اليقظة التامة والانتباه الفائق، والاطلاع الواسع.

وقد وصل مع البحث والصبر عليه، ومجانبة التقليد، مع قوة النقد والتمحيص إلى حقائق اطمأن إليها وجهر بها، ودافع عنها وهي كالغذاء الدسم تحتاج لمعدة قوية تستطيع هضمه من غير عناء.

ومن مثل أحمد بن الصِّديق يكسرُ الحواجزَ العالية بينه وبين الصدع بما يراه صواباً فلا يكتم رأياً ولا يسكتُ عن صوابٍ رآه!.

ولم يكن أحمد بن الصِّديق رحمه الله تعالى بالذي يلقي الكلام على عواهنه بل يقف ويدافع ويصاول ويشرح، ويبدو صاحب الرأي الراجح متمكناً من مادته بقوة فيسكت الخصم المقهور الذي لا يسعه إلا أن يفصح عن ضيق صدره بالضجيج والسبِّ والتبديع، أو تناول لفظة صارمة أو عبارة قاسية

صدرت من السيد أحمد وقت الأخذ والرد فيطير بها شرقاً وغرباً فيبعد عن الحق ومهيعه.

* ولم يكن السيد أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى فقيهاً يعضُ بالنواجذ على متن المذهب المعتمد، ويعكف على حلِّه بالشروح والحواشي والتقريرات الخالية من الدليل والتعليل ووجه الاستدلال فيكون نسخة مكررة لفقهاء عصره وشيوخهم.

* ولم يكن السيد أحمد بن الصِّدِّيق بالذي نذر نفسه للدفاع عن إمام مذهبه وعلمائه بالحق أو بالباطل أو بالوقيعة في الآخرين ومعتبراً النظر في الدليل جريمة لا تغتفر.

* ولم يكن السيد أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى بالذي يظن أنه جمع علم الأولين والآخرين وغايته طرق يرويها لأثبات الكُوَراني، والفلاني الشنواني، والشرقاوي، والأمير، ومعاجم شيوخ البِرْزالي، والذهبي، والسخاوي، وفهرسة ابن خير وعوالي للجان والمعمرين.

* ولم يكن السيد أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى عالماً قصر نفسه على الدرس والتدريس غير عابئ بمستعمر كافر يدنس البلاد ويظلم العباد أو عصري علماني عميل كانت يده في إفساد البلاد أطول من يد الاستعمار.

* ولم يكن أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى يداهنُ شِيَعَ الخوارج والنواصب، وأعداء أهل الله - السادة الصوفية رضي الله عنهم - فيساكنهم ساكتاً على بدعهم.

* ولم يكن السيد أحمد بن الصِّديق رحمه الله تعالى مقلداً غايته النظر في الجامع الصغير، وذخائر المواريث، وكشف الخفا، ويسردُ بعض الموضوعات والمنكرات في درسه، ولا يميز الثابت من المتروك ويدعونه بالمحدِّث...

* ولم يكن السيد أحمد بن الصِّديق رحمه الله تعالى بالذي يجمع بعض الطرق والوجوه وينظر في الأسانيد فيصحح ويُضعِّفُ ويهم ويتناقض ويقطِّع الأصول مع ضعفٍ ظاهرٍ في الرجال واعتمادٍ على المختصرات وبُعدٍ عن تحقيق قواعد الحديث، فيرى أنه أتى بما عَسُر على المتقدمين.

* ولم يكن السيد أحمد بن الصِّديق مقوضاً لقواعد الحديث، مهاجماً لأئمته يتهمهم بالتساهل والغفلة والرشوة والتسرع وهو عارٍ تماماً عن الاطلاع على الأسانيد المطبوعة بله المخطوطة أو تخريج حديث واحد على طريقة المحدِّثين.

فإن سألت فمن هو أحمد بن الصِّديق؟ أقول لك: السيد أحمد بن الصِّديق رحمه الله تعالى شارك النماذج المتقدمة في جميع حسناتها وزاد عليها فهو كما يقول تلميذُه العلامة الشيخ أحمد بن محمد مرسي النقشبندي «عالم في شخص، وأمة في نفس».

وكما ذكرت في التقدمة إن محاولة الإحاطة بفكر وفوائد السيد أحمد بن الصِّديق الغُماري أمر شاق وعسير، فلذا رأيت الاقتصار هنا على قراءات في فكر السيد أحمد بن الصِّديق كتبتها من رأس القلم فجانبت الاستطراد وهي محتاجة للتكميل، ولكنها كافية للبيب.

وهذه القراءة لم تكن شاملة بل اكتفيت بالكتابة في مسائل ظن المتسرع أو

المخالف بأن السيد أحمد قد جانب فيها الصواب فإذا به - عند ذوي الألباب - لم يخطئ السداد ومع ذلك فأهل العلم لم يزالوا بين مردود عليه وراد. والله المستعان لا ربٌّ سواه.

أولاً: أحمد بن الصديق ورغبة تجديد الفقه المالكي

نشأ السيد أحمد بن الصَّديق رحمه الله تعالى في بيئة مالكية مغربية، وعندما انتقل إلى القاهرة للدراسة بالأزهر استمر في دراسة المذهب المالكي ثُمَّ درس المذهب الشافعي، وهو مع عنايته الفائقة بالحديث وبعلومه، وحضوره دروس شيخ علماء الديار المصرية العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي في الفقه الحنفي وباطلاعه على المذاهب الأخرى وتمكنه من العربية والأصول، كان يرغب في معرفة ودراسة كتب الفقه المالكي التي تُعنى بذكر الدليل ووجه الاستدلال، وتعليل المسائل، والترجيح بين الأقوال والوجوه التي في المذهب، ومدرك ومأخذ كلٍ كما في كتب الفقه الشافعي.

وهذه الفوائد الجليلة خلت منها تقريباً كتب الفقه المالكي المتداولة في الدرس حيث كان عمدة السادة المالكية ولا يزال مختصر العلامة الفقيه المالكي الشيخ خليل بن إسحاق المصري المتوفى سنة ٧٧٦هـ رحمه الله تعالى وعليه المعول في الدرس والفتوى سواء في مصر أو المغرب.

واشتغال السيد أحمد بكتب فقه المذاهب الأربعة، واختلاطه بأكابر علماء المذاهب بالأزهر المعمور لفت نظره إلى أوجه الاعتراض على المختصر.

والحق يقال إنَّ كثيراً من المالكية كان لهم اعتراض في الاقتصار على المختصر وشروحه في الدرس والفتوى، فهذا العلامة الفقيه محمد بن الحسن

الحَجْوي المغربي المالكي يبدي نقده القوي للمختصر والاقتصار عليه فيقول في كتابه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي(٤/ ٣٦٨ - ٤٠٢): «لما ألف المتقدمون دواوين كباراً كـ«المدونة»، و«الموازية» و«الواضحة» وأمثالها عسر على المتأخرين حفظها لبرودة وقعت في الهمم فقام أهلُ القرن الرابع باختصارها» فذكر مختصر ابن أبي زيد القيرواني للمدونة ثم قال: «جاء البراذعي وألف «التهذيب» اختصر مختصر ابن أبي زيد، وأتقن ترتيبه، واشتهر كثيراً حتى صار من اصطلاحهم إطلاق لفظ «المدونة» عليه، ثم جاء أبو عمرو ابن الحاجب واختصر تهذيب البراذعي في أواسط السابع، ثم جاء خليل في أواسط الثامن واختصره». وهنا بلغ الاختصار غايته، لأن مختصر خليل مختصر مختصر المختصر بتكرر الإضافة ثلاث مرات، وإن أخل بالفصاحة، وكاد جل عبارته أن يكون لغزاً، وفكرتهم هذه مبنية على مقصدين وهما: تقليل الألفاظ تيسيراً على الحفظ، وجمع ما هو في كتب المذهب من الفروع، ليكون أجمع للمسائل، وكل منهما مقصد حسن لولا حصول المبالغة في الاختصار التي نشأت عنها أضرار.

ثم قال العلامة الحجوي: لكن «خليل» لا يمكننا أن نفهمه ونثق بما فهمنا منه إلا بستة أسفار للخرشي، وثمانية للزرقاني، وثمانية للرُهوني، الجميع اثنان وعشرون سفراً مع طول الزمن المتضاعف في الدروس والمطالعة في تفهم العبارات المغلقة فلم يحصل المقصود من الاختصار، بل انعكس الأمر، وأصبحنا في التطويل، فأصبح علم الفقه يستغرقُ عمرَ الطالب، والمدرسُ لا يبقى معه فراغ لعلم غيره لمن يريد إتقانه.

ثم قال: وقد ختم المختصَر بعضُ أشياخنا تدريساً في نحو أربعين سنة ومع

هذا فإنما يحرر الفروع، ويسردها مسلمة، وأما الاطلاع على أصولها من كتاب وسنة وإجماع وقياس، وعلة الحكم التي لأجلها شرع، وفهم أسرار الفقه، وما هناك من أفكار السلف، وكيفية استنباطهم ومداركهم، فكل ذلك فاتنا بفوات كتب الأقدمين الحاوية لذلك. ولقد فاتنا خير كثير، وقد كان تعليمه يعين على الملكة الصحيحة في الفقه، والفقيه الذي يستحق لقب فقيه هو العارف بذلك، أما الذي يسرد آلافاً من مسائله غير عارف بأصلها فإنما هو حاك نقال. انتهى ملتقطاً من الفكر السامي (٤/ ٣٩٨-٤٠٢).

وقد سمت همة السيد أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى للحصول على كتب السادة المالكية التي تعنى بالدليل والتعليل تأصيلاً وتفريعاً ثم طبعها ونشرها بين الناس فقال عن نفسه في البحر العميق في مرويات ابن الصديق (١/ ٣٣):

بحثَ عن كتب المالكية التي يُذكر فيها الدليل فأخبره والدُه بأن «البيان والتحصيل» لابن رشد يذكر تعليل الفروع وأدلتها وأنه موجود عند أولاد ابن صالح بقبيلة بني رزين الغُمارية فشدَّ الرحلة إلى غُمارة لزيارة أضرحة أسلافه، وإعارة هذا الكتاب، فوجد يدَ الضياعِ والإهمال قد سطت على نسخته الأندلسية العتيقة المجزأة على اثني عشر مجلداً، ولم يبق منها إلا مجلدان، فلما أعياه الوقوف على كتاب مستوف لمرغوبه من ذكر الفروع بأدلتها شرع في وضع كتاب على رسالة ابن أبي زيد القيرواني يذكر فيه لكل مسألة أدلتها من الكتاب والسنة والقياس سماه «تخريج الدلائل لما في رسالة القيرواني من الفروع والمسائل» فكتب منه مجلداً إلى كتاب النكاح، ثُمَّ عدل عن التطويل

فشرع في آخر مختصر يذكر فيه لكل مسألة حديثاً أو حديثين فأتمه في مجلد وسماه «مسالك الدلالة على مسائل الرسالة»اهـ.

وشرع المترجم في تخريج أحاديث كتاب اعتنى بأدلة الفقه المالكي هو «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» لابن رشد الحفيد.

قلت: فهذه ثلاثة كتب وثَمَّ رابع فخامس وكلها في ذكر أدلة المالكية وقد استغرقت أوقاتاً طويلة من عمر السيد أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى أمضاها في خدمة مذهب الإمام مالك رحمه الله تعالى فأستخرج أدلة مذهبه وخدم كتبه، وعُدَّ بذلك مجدداً في المذهب، فقد مضت قرون متطاولة وكتب المذهب المالكي المتداولة عارية عن الدليل حتى جاء السيد أحمد فحاز الكنوز والذخائر ونقَّب في بطون الدفاتر واستدل للمذهب بالأحاديث والآثار وبالعمل والقواعد والضوابط وغيرها، ولو أمعن خبير عالم في جهود السيد أحمد في خدمة المذهب المالكي لاعترف بمننه المتتابعة على المذهب وأهله، وإذا رغب معاصر في الاستدلال للمذهب المالكي فعلى طروس مسالك الدلالة، وتخريج أحاديث البداية يتطفل، وستجد سُدى ولحمةَ كتابات المالكية المعاصرين كتب السيد أحمد بن الصِّدِّيق رحمه الله تعالى.

وهذه كلمة عن كتبه الخمسة ثُمَّ منشوراته الفقهية:

١ - «تخريج الدلائل إلى ما في رسالة القيرواني من الفروع والمسائل»، تقدم الكلام عليه، وما كتبه منه يقع في مجلد ضخم، ومنه نسخة بخط المصنف في مكتبة أحد إخوانه.

٢ - «مسالك الدلالة على مسائل متن الرسالة» وهو في مجلد قال في مقدمته (ص٢): «وهو كأصله الذي لم أتعرض فيه لجميع المتن بل حذفت منه ما هو ظاهر لا يحتاج إلى دليل».

ومسالك الدلالة كتاب فقه لم ينسج - بين متأخري المالكية - على منواله، تغلب عليه الصفة الحديثية فكان مصنفه مبدعاً مجدداً فيما كتب. وثَمَّ ملاحظات أذكرها بإيجاز واختصار:

أ - لم يتعرض المصنف لمتن الرسالة كاملاً، بل ذكر ما استدل له فقط.

ب - عَبَّر المصنف في نهاية الكتاب (ص٤٤٠ - ٤٤١) عما يجيش في صدره إزاء بعض فقهاء عصره من اقتصارهم على الكتب الخالية من الدليل وإهمالهم لكلام الإمام مالك رحمه الله تعالى واستدلالاته في الموطأ، وتقديم كثير منهم عبارة المدونة على عبارة مالك في الموطأ بل تقديم بعضهم عمل فقهاء المختصر على الموطأ، بل قدم بعضهم عُرْف بعض المدن على الموطأ وغيره، فلم يقف المصنف - وهو العلامة المطلع - ساكتاً فجرَّتْه غيرتُه وفطنتُه وألمعيتُه، إلى نقد ما رآه من مخالفات، بعبارة مغربية قاسية، ولا يرتاب منصف في صواب المصنف، بيد أن بعض السطحيين تمنعه قوة النقد وصلابته ووضوحه من الاستفادة من رأي فقيه مميز بصير كالسيد أحمد فيسارع بنقد اللفظ فقط، ويغض الطرف عن المعنى ليعالج حاجة في نفسه. والله المستعان.

جـ - وقد يذكر بعض الأحاديث الواردة في الباب، تصريحاً أو إشارة أو إحالة لبعض كتبه كما في (ص٦) فيقول: «وفي الباب عن» ثم ذكر جماعة ثم

قال: ذكرت جميعها في تخريج أحاديث بداية ابن رشد ونحوه (ص٢٣، ص٥١).

أو يقول (ص٦): وفي الباب عن سبعة عشر صحابياً ذكرتُها في «الإلمام بطرق المتواتر من حديثه عليه الصلاة والسلام» وغيره، ونحوه (ص٢٣، ص٥١).

د - وهو يتكلم على الأحاديث صحةً وضعفاً بحسب الحاجة فبعد أن استدل بالآثار في بعض مسائل الاستحاضة قال (ص٨): وأما ما ورد مرفوعاً في الباب فلا يصح منه شيء.

هـ - وأحياناً يحيل إلى أجزائه الحديثية المصنفة في مسائل مفردة كما في جزئه «مسامرة النديم بطرق حديث دباغ الأديم» (ص١٦٠).

و - وقد يحيل على الأصل فيقول (ص٨٠): وفي الباب أدلة أخرى ذكرتها في الأصل.

ز - ولما كان السيد أحمد رحمه الله تعالى يستدل للمالكية فهو يمشي مع أصولهم فيستدل بالقياس (ص٨٥)، وبعمل أهل المدينة (ص٨٥).

والكتاب كاد أن يبلغ الغاية في مرامه، ولولا أن سدول الظلام قد أرخيت على طلبة العلم لكان لهذا الكتاب شأن بين أهل المذهب وغيرهم. ودَينٌ على المالكية كشف اللثام عن وجوه مخدّرات ذلك السفر الجليل بإعادة طباعته بطريقة لائقة بمكانته.

٣ - الهداية في تخريج أحاديث البداية:

بداية المجتهد ونهاية المقتصد للعلامة محمد بن أحمد بن رشد المالكي

القرطبي المتوفى سنة ٥٩٥هـ رحمه الله تعالى، وهو حفيد محمد بن أحمد صاحب «البيان والتحصيل».

ولما كان ابن رشد مالكي المذهب فقد اعتنى بذكر أدلة مذهبه في كتابه المذكور عناية فاقت عنايته بأدلة المذاهب الأخرى، وعليه فتخريج السيد أحمد ابن الصديق رحمه الله تعالى لهذا الكتاب امتاز بتخريج أدلة المالكية، وزيادة على ماذكرته فهو التخريج الوحيد الذي بين أيدي الناس لكتاب قد نحا فيه مؤلفه منحى الدليل الواسع الذي يستفيد منه أهل المذاهب دون التدليل القاصر على المذهب الواحد، وإن كان المالكية أسعد الناس به، وهذه منقبة تفرد بها السيد أحمد رحمه الله تعالى تستوجب تقديم الشكر له والثناء على عمله، ولكن الإنصاف عزيز.

قال رحمه الله تعالى في مقدمته (١/ ٨٠): «أما بعد، فهذا ما تمسُّ إليه الحاجة من تخريج أحاديث «بداية المجتهد ونهاية المقتصد» للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي، كتبتُه إجابةً لرغبة السائلين، واختصرتُ القولَ فيه بقدر المستطاع، حسب رغبة المذكورين».

ومع أنه أراده مختصراً فقد جاوز الوسط مع بسط في مواضع رأى أنها تحتاج لتحرير شهد له بالمتانة، وغزارة الاطلاع، والمعرفة التامة، واليقظة وقوة النقد فأصبح في مكانةٍ مرموقة بين تخاريج الحفاظ المتداولة كالزيلعي، وابن الملقن، وابن حجر وغيرهم والتي يعول عليها أهل العلم.

وميزة هامة لهذا التخريج أنك تراه لا يجنح وراء قول يأباه الصواب فيلبس الواهي لباس القوي، والصحيح لباس التالف، بل الإنصاف رائده.

٤ - مدارك الاستقالة من ضعيف مسالك الدلالة .

هذا كتاب عجيب ليس له في بابه ضريب ، فمصنفه كان غرضه في «مسالك الدلالة» وأصله : الاستدلال على مسائل ابن أبي زيد القيرواني فقط ، وفي «المدارك» كان غرضُه الكلامَ على الأحاديث صحةً وضعفاً ، وميز الأقوال والوجوه وما الذي ينبغي أن يعد مذهباً لمالك ، وغاير بين الضعيف المشهور ، والصحيح المهجور ، وكم من سوانح ، وفوائد ، ونكات جادَ بها قلمُه في هذا العمل الجليل الذي لا يستطيعه إلا العصبة أولو القوة في الفهم والجلد والذكاء والتيقظ والنشاط ، وما أظن هذا الكتاب قد اكتمل فإني رأيت قطعة منه بقلم مصنفه .

٥ - البيان والتفصيل لوصل ما في الموطأ من البلاغات والمراسيل .

كتاب الموطأ هو الأصل الأصيل عند كثير من المالكية ، وكان السيد أحمد رحمه الله تعالى يخالف من يقدم قول مالك الذي في المدونة على قوله في الموطأ ، وأقام الدلائل في عدة أماكن على صحة ما رآه .

وللسيد أحمد كلمة ضافية عن الموطأ وتقديمه على غيره ذكرها في كتابه «المثنوني والبتار» (١/ ٧٤ ، ٧٥) قال فيها : «الموطأ هو كتاب الإمام الذي ألفه بيده وخرَّج فيه لنفسه ما رآه واختار العمل به من الاحاديث وآثار الصحابة والتابعين وترجم لذلك بما أداه إليه اجتهاده ، وقصد بالكتاب أن يكون أصلاً لمذهبه ومرجعاً لدلائله ولم يقصد أن يجعله ديواناً عاماً يجمع ماورد من السنن والآثار ما أخذ به منها ومالم يأخذ به إذ لو فعل ذلك لكتب فيه آلافاً مؤلفة من

الأخبار والآثار على سعة حفظه وامتداد باعه، ولجاء في عدة مجلدات ككتب غيره من الأئمة والحفاظ الذين قصدوا استيعاب السنن والآثار على حسب ما بلغهم، فلما لم يفعل ذلك ومكث في تنقيحه وتهذيبه نحو أربعين سنة إلى أن ترك فيه من الأحاديث المرفوعة مالا يبلغ السبعمائة دل على أنه ماذكر فيه إلا ختياره ومذهبه.

كما أنه يترجم للمسألة وفيها الحديث الصحيح باتفاق فلا يورده لكونه غير قائل به لدليل أوجب له ذلك ويذكر في مقابله أثراً موقوفاً أو مقطوعاً وهو أدل دليل على أنه لم يقصد بتدوينه إلا ذكر ما هو اختياره ومذهبه، فنسبة مافي الموطأ إليه نسبة صحيحة راجحة لا يعيبها إلا جاهل أو معانه بل لاينبغي أن يقطع بنسبة قول إليه إلا ماوقع في موطئه للقطع بصحة نسبته إليه بخلاف غيره من الروايات فإنها ظنية. وعلى هذا درج العلماء كافة: مقلدته وغيرهم، حيث ينقلون مذهبه من الموطأ وينسبون إليه ماترجم له فيه واستدل به من الأحاديث عليه حتى إنَّ كثيراً من أئمة مذهبه يرجحون ما في الموطأ على غيره كما قدمناه عن أبي الوليد ابن رشد وأبي محمد صالح وغيرهما».

ولذلك توجهت همة السيد أحمد رحمه الله تعالى للعناية بهذا الكتاب من عدة وجوه منها:

أ - تقديم قول مالك في الموطأ على غيره ومشى على ذلك في مصنفاته.

ب - إقامة الدلائل والوجوه على تقديم قول مالك في الموطأ.

جـ - خدمة الموطأ بوصل ما وقع فيه من المراسيل والبلاغات لأنه وإن كان

صحيحاً عند مالكٍ ومقلديه، لكن هذا التسليم لا ينفع عند إقامة الحجة والبرهان على المخالف، فكتب السيد أحمد رحمه الله تعالى «البيان والتفصيل» انتصاراً للفقه والحديث والمذهب.

٦ - وثَمَّ منشوراتٍ فقهية في مسائل عرضت عليه فجرد القلم للتصنيف فيها، من أهمها كتابه «المثنوني والبتار في نحر العنيد المعثار الطاعن فيما صح من السنن والآثار» انتصر فيه لسنية القبض في مباحث مبسوطة تهم الباحث المعتني بالفقه أو الحديث، سواء كان مالكياً أو غيره.

وأفرد مقدمة «المثنوني والبتار» في جزء مطبوع سماه: « رفع شأن المنصف السالك، وقطع لسان المتعصب الهالك، بإثبات سنية القبض في الصلاة على مذهب الإمام مالك»، وهذا الجزء واضح الدلالة على معرفة وفقاهة وسعة اطلاع السيد أحمد بحيث إن الواقف عليه يدهش إذا علم أنه كتبه وهو في منتصف العقد الثالث من عمره.

هذا وكانت للسيد أحمد رحمه الله تعالى آراءٌ في أصول المذهب المالكي المختلف فيها، وفي ترتيب الأدلة.

ومن أحسن الكتب التي تشير إلى آراء السيد أحمد في أصول المذهب المالكي كتاب شقيقه وتلميذه شيخنا العلامة الفقيه الأصولي السيد عبد الحي ابن الصِّدِّيق الغُمَاري رحمه الله تعالى: «نقد مقال في مسائل من علم الحديث والفقه والأصول، وتفضيل بعض المذاهب» وهو مطبوع بالمغرب.

ثانياً: السيد أحمد بن الصِّديق الغُمَاري ومعرفة الحديث

الكلام على معرفة السيد أحمد بالحديث ومحبته له وتفوقه فيه هو من باب التعريف بالمعرف، ولكنني أقول في هذه العجالة:

يقول السيد أحمد رحمه الله تعالى في كتابه «البحر العميق في مرويات ابن الصِّديق» وهو يعددُ نعمَ الله تعالى عليه (١/ ل٦٦): «ومنها محبتُه للحديث المحبةَ الشديدة بحيث حصر الله تعالى شهوتَه ولذته فيه فليس له في الدنيا لذةٌ تساوي لذةَ الاشتغالِ به، حتى إنَّه مرض وهو ابن عشرين سنة مرضة شديدة حكم بعض كبار الأطباء بأنه لا يعيش، وكان هو لما آيس من الحياة أوصى أن يُدفن معه شرح المناوي الصغير على الجامع الصغير لفرط غرامه بالحديث، وكتبه التي فيها الدليل على التضعيف».

وكانت له عناية بما لم يطبع من كتب الحديث من مسانيد وسنن وجوامع وأجزاء، وقد نسخ بيده الكثير، ونُسخ له الكثير أيضاً، وكان إذا وجد كتاباً احتوى على أحاديث مسندة سارع بتجريد المسند منه في جزء خاص كما فعل في «المؤانسة بالمرفوع من حديث المجالسة» وهو جزء جمع فيه الأحاديث المرفوعة من المجالسة للدينوري.

ووقت مجاورتي بمكة المكرمة دخلتُ مكتبة الحرم المكي الشريف بصحبة شيخنا السيد عبد العزيز بن الصِّديق رحمه الله تعالى، وبعد أن نظر في الفهارس طلب جزءاً حديثياً ونسخه في سرعة وأدهشت من سرعته التي لم أر

أحداً قاربها فسألته فقال لي – قُدس سره – : «عندما كنا بمصر كان أخي السيد أحمد رحمه الله تعالى يأمرنا بنسخ الأجزاء الحديثية التي بمكتبة الأزهر أو بدار الكتب المصرية ويعين لنا الجزء والوقت، ومن هنا كانت سرعتي في الكتابة»، رحم الله تعالى الجميع ونفعنا بعلومهم.

وقال شيخنا العلامة المحدِّث السيد عبدالعزيز بن الصِّديق رحمه الله تعالى في كتابه «تذكرة المؤتسي بترجمة نفسي (ل١٧٦)» في الفصل الذي ترجم فيه لمشايخه: «أحمد بن محمد بن الصِّديق شقيقي أبو الفيض، صاحبُ التآليف الكثيرة المفيدة الحافظ الحجة، الذي ألقت إليه علوم الرواية بالمقاليد، وحازَ قصبَ السبق في مضمارها، وأتقن فنونها، فلا يوجدُ له نظيرٌ في مشرق الأرض ولا مغربها في الإحاطة بأصولها وأقوال أئمتها، الحق أنه ابن حجر هذا العصر من غير منازع ولا مخالف، وتآليفه شاهدة بهذا لمن قرأها وسبرَ غَوْرها، مع التضلع واليد الطولى في علوم الدراية كالأصول وغير ذلك، وقد وصل إلى درجة الاجتهاد والاستنباط ونبذ التقليد في كلِّ ما يتقنه من كل العلوم، وله استنباطات عجيبة، واستخراجات للمسائل في الأحكام من أدلة الكتاب والسنة لم يُسْبق إليها من أحد قبله، وله المصنفات الجيدة الكثيرة، والتآليف العجيبة الدالة على اطلاعه وتبحره وإتقانه لعلوم السنة والحديث وهي تزيد على المائتين... الخ».

وقد ترجمه كاتب هذه السطور في «تزيين الألفاظ بتتميم ذيول تذكرة الحفاظ» (ص١٠٤، ١٠٥) فقلت: وهو مستحق للوصف بالحفظ، وقد وصفه بذلك جمعٌ من أعيان شهوده من ذوي الخبرة بالحديث وعلومه، فقد اشتهر

بالطلب والأخذ من أفواه الرجال، وكان على معرفة تامة بقواعد الجرح والتعديل، ومذاهب النقاد، وبطبقات الرواة مع تمييزه لصحيح الحديث من ضعيفه، وكان حفظه للحديث قوياً. يسرد المتون كأنه يقرأ من كتاب، وزاد على ما سبق أمرين:

أولهما: أماليه الحديثية، قال الحافظ الذهبي في الموقظة (ص٦٧): «وكان الحفاظ يعقدون مجالس الإملاء، وهذا عُدم اليوم»، ورأيتُ الأمالي الحسينية للسيد أحمد، وهي المجالس التي أملاها بمسجد سيدنا الحسين عليه السلام بالقاهرة، وأملى بمسجد الكخيا بالقاهرة، وبالجامع الأعظم، وبالزاوية الصديقية بطنجة.

وثانيهما: كتابة المستخرجات فاستخرج على مسند الشهاب للقضاعي، وجاء المستخرج في مجلدين ضخمين، ولم يكتف بالاستخراج على المسند فقط بل يأتي بما في الباب بشرط إيراده مسنداً ليكون الكتاب كله على منوال واحد، ووضع مستخرجاً على شمائل الترمذي فجاء في مجلد ضخم بعد أن كانت في جزء، كما استخرج على ما أسنده السهروردي في عوارف المعارف، وما أظنُّ أنَّ أحداً عمل المستخرجات بعد القرن السادس. نعم استخرج الحافظ العراقي على المستدرك لكن لم يكمله، وهو مطبوع في جزء، والله أعلم.

وقد سكب المترجم له فوائده الغالية في أجزائه وتخريجاته وأماليه ومستخرجاته وإجاباته وتعقيباته بنفس زكية جوادة بالخير، راغبة في إفادة أهل العلم، وقد اجتمع عند تلاميذه من خطاباته وردوده العلمية فيما أشكل عليهم مالو جمع لزاد على عشرة مجلدات وقد رأيت قسطاً وافراً منها وليس الخبر

كالمعاينة، وفوائد السيد أحمد بن الصِّديق الحديثية من مصنفاته تخرج في أربعة أسفار، وأراه أمراً بعيد المنال في وقت تقاصرت فيه الهمم وفترت العزائم.

والكلام على الجانب الحديثي في حياة المترجم ومصنفاته يحتاج لدراسات خاصة، وقد رأيت عدداً من طلبة الدراسات العليا يتنافسون على كتابة دراسات عن كتبه ويتخذونها حجة ومرجعاً.

بيد أنني لا أحب أن أخلي المقام من أمر لفت انتباهي، ففي كتاب «تراث المغاربة في الحديث النبوي وعلومه» للأستاذ الفاضل محمد بن سيدي الجليل عبدالله التليدي كان عدد المصنفات في الحديث وعلومه التي أنتجها علماء المغرب الكبير (الأندلس - المغرب الأقصى - الجزائر - تونس - شنقيط): ١٢١١ مصنفاً؛ يختص السيد أحمد بن الصِّديق منها بعدد (١٠١) مصنفاً بنسبة (٨,٣٪)، مع أنهَ لم يستوعب جميع مصنفات المترجم

وهذه النسبة العالية تضع السيد أحمد بن الصِّديق على رأس قائمة المصنفين من حيث العدد في الحديث وعلومه في المغرب الإسلامي الكبير بدون منازع أو مقارب.

وإذا علمت أن نسبةً عاليةً من المصنفات الحديثية بالمغرب كانت تقاييد وحواشٍ لعلماء ليسوا بمحدِّثين لا سيما فيما بعد القرن الثامن، علمت قيمة الرجل ومكانته العلمية، وغزارة انتاجه المتميز باليقظة والمعرفة والإتقان، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسام

ثالثاً: السيد أحمد بن الصِّدِّيق الغُمَاري وآل البيت عليهم السلام

كان السيد أحمد رحمه الله يحب آل البيت ولا سيما العترة عليهم السلام ويواليهم الموالاة الكاملة، ويرى كجماهير علماء المسلمين أنَّه قد ثبت لعلي عليه السلام من الخصائص[1] ما لا يشركه فيها أحد من أكابر الصحابة رضي الله عنهم.

فآية المباهلة تثبت له مزية النفسية، وهو أحدُ أهل الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجسَ وطهرهم تطهيراً، وصحَّ أنه أحدُ الثقلين اللذّين في التمسك بهما مجانبة للضلال واتباع للصواب، وأنه تجب مولاتُه ونصرتُه، وهو صنو النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحديث: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، وهو لا يدعو إلا للجنة، وسابُّه سابٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لحديث أُمِّ سلمة رضي الله عنها الذي في المسند، وهو أحبُّ الخلق إلى الله - في وقته - بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بنصِّ حديث الطير الصحيح[2]، وهو باب مدينة العلم، وأعلم الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - وأشجعهم وأقضاهم، وحبُّه إيمان وبغضُه نفاق، من نصره يكون منصوراً، ومن خذله فهو المخذول، يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه

---

(١) الكلام هنا عن الخصائص لا الفضائل والفرق بينهما واضح.

(٢) حديث الطير حديث صحيح، والحكم عليه بالضعف أو الوضع فيه مجانبة لقواعد الحديث، وللحديث طرق كثيرة منها ماهو شديد الضعف، ومنها الضعيف، ومنها المشبه بالحسن، ومنها طريق على شرط مسلم وليراجع تفصيل ذلك في «إتحاف الأكابر بتصحيح حديث الطائر»، والتعليق على «النقد الصحيح» للراقم عفا الله عنه.

اللهُ ورسولُه، هو من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يبلغ ويؤدي عنه، وصهره على أفضل بناته، وولداه ريحانتا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ونسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منه.

ولأننا لسنا بصدد استقصاء خصائص الإمام علي عليه السلام نلفت نظر الراغب فيها بمراجعة كتاب (خصائص علي عليه السلام) للإمام النسائي.

وفي الاستيعاب لابن عبدالبر (٣/ ٢١٣): وقال أحمد بن حنبل وإسماعيل بن إسحاق القاضي: لم يرو في فضائل أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان ما رُوي في فضائل عليّ بن أبي طالب. وكذلك قال أحمد بن شعيب ابن علي النسائي رحمه الله، وزاد الحافظ في الفتح (٧/ ٧١) الحافظ أبا علي النيسابوري.

وكان السيد أحمد رحمه الله تعالى يكثر من إشاعة خصائص وفضائل آل البيت عليهم السلام، وصَنَّفَ جُزْءاً حافلاً مطبوعاً في تصحيح حديث «باب مدينة العلم».

مسألة التفضيل في نظر السيد أحمد بن الصديق

أ - كان السيد أحمد رحمه الله تعالى يرى أن مسألة التفضيل قد اختلف فيها الصحابة رضي الله عنهم أنفسهم كما يعلم من مراجعة مقدمة الاستيعاب، ومن ترجمة علي عليه السلام في الاستيعاب أيضاً، ومن كتب الملل والنحل لأبي الحسن الأشعري وللشهرستاني.

قال ابن عبد البر في الاستيعاب (٣/ ١٩٧): «ورُوي عن سلمان، وأبي ذر، والمقداد، وخباب، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وزيد بن الأرقم أنّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أول من أسلم، وفضله هؤلاء على غيره».

- قال ابن حزم في الفصل (٤/ ١٨١): «اختلف المسلمون فيمن هو أفضل الناس بعد الأنبياء عليهم السلام. فذهب بعض أهل السنة، وبعض المعتزلة، وبعض المرجئة، وجميع الشيعة، إلى أن أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - **وقد روينا هذا القول نصًّا عن بعض الصحابة رضي الله عنهم وعن جماعة من التابعين، والفقهاء»**.

وقال ابن أبي خيثمة: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا سَيَّار، حدثنا عبد الرزاق، قال: قال مَعْمَرٌ مرة وأنا مستقبله وتبسم وليس معنا أحد، فقلت: ما شأنك؟ فقال: عجبت من أهل الكوفة، كأن الكوفة إنما بنيت على حبِّ علي، ما كلمت أحداً منهم إلا وجدت المقتصد منهم الذي يفضلُ علياً على أبي بكر وعمر، منهم سفيان الثوري. قال: فقلت لمعمر ورآني كأني أعظمت ذلك، فقال معمر: وما ذاك؟ لو أن رجلاً قال علي أفضل عندي منهما ما عنفته، إذا ذكر فضلهما عندي، ولو أن رجلاً قال: عمر أفضل من علي وأبي بكر ما عنفته، قال عبد الرزاق: فذكرت ذلك لوكيع ونحن خاليان، فاشتهى لها وضحك، وقال: لم يكن سفيان يبلغ بنا هذا الحد، ولكنه أفضى إلى معمر مالم يفض إلينا.

ب - وكان المترجم له يرى أن مسألة التفضيل بين الصحابة ظنية وهي من مسائل الفروع ولا علاقة لها بالاعتقاد.

ج - وكان المترجم له يصرح بأن من يذهب إلى أنَّ علياً أفضل الصحابة مع الترضي عن الصحابة رضي الله عنهم وحبهم وإجلالهم وتقديرهم وإنزالهم

المنزل الذي رضيه الله عز وجل ورسوله لهم لا سيما العشرة المبشرين وأمهات المؤمنين والسابقين من المهاجرين والأنصار الذين آووا ونصروا لم يخطئ . . وهذا مذهبه .

وله كلام مبسوط في كتابه « البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي» .

موقفه من النواصب وأئمتهم

وكان المترجم له يرى أنه قد صَحَّ وثبت من طرق كثيرة أن بعض من حارب علياً عليه السلام في صفين وناصبه وآل بيته العداء، كان يسب علياً عليه السلام على المنابر[1] . وقدم عمال بني أمية الخطبة على الصلاة في العيدين ليسمع الناس سبَّ أبي تراب عليه السلام إمام آل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس، وهبط جبريل بتطهيرهم وباهل بهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأمر الله عز وجل، وفرض الله مودتهم وأوجب ولايتهم .

واستمر السبُّ واللعن لصنو النبي صلى الله عليه وآله وسلم على المنابر زمناً طويلاً . وقد ثبت اعتراض أكابر الصحابة رضي الله عنهم على السب الشنيع الذي تصغر عنده العظائم .

ففي المسند (٦/ ٣٢٣) عن أبي عبدالله الجدليِّ قال : دخلتُ على أمِّ سلمة رضي الله عنها فقالت لي : «أيُسب رسولُ الله ﷺ فيكم؟ قلت : معاذ الله أو

(١) راجع مسند سعيد بن زيد رضي الله عنه من مسند أحمد (رقم ١٦٣١، ١٦٣٧، ١٦٣٨، ١٦٤٤) .

سبحان الله أو كلمة نحوها. قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سبَّ علياً فقد سبني».

واعتراض سعيد بن زيد رضي الله عنه على من نال من علي عليه السلام على المنابر ثابت في مسند أحمد (١/ ١٨٨) وفي فضائل الصحابة له، وسنن أبي داود (٤/ ٢١١)، وغيرهم.

وكان موقف السيد أحمد رحمه الله تعالى ممن كان يسبُّ علياً عليه السلام وناصبه العداء هو تركُ الترضي عنه ولم يأمرنا الله تبارك وتعالى بالترضي عمن يلعنُ ويسبُّ مؤمناً، فكيف بمن اجترأ على مقام من جاء النصُّ بأن سابَّه سابٌ لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟، والمسألة طويلة الذيل، والأمر واضح، ولا بد من تقديم الخاص على العام، وإعمال الأدلة كلِّها.

ومع ذلك لم يرد السيد أحمد أحاديثهم، وامتلأت كتبه بالعزو إليهم وله في الأخذ بأحاديثهم وجه، فكان سُنياً متبعاً لا ناصبياً مبتدعاً.

وفي ذلك يقول العلامة الشيخ أحمد الحفظي الشافعي القائل في أرجوزته:

وقد حكي الشيخ السيوطي: إنه

قد كان فيما جعلوه سنه

سبعون ألفِ منبرٍ وعشرَهْ

من فوقهنَّ يلعنونَ حيدرَهْ

وهذه في جنبِها العظائمُ

تصغر بل نوجهُ اللوائمُ

فـــهل ترى من سنَّهـــا يُعـــادَى؟

أو لا وهل يســـتَـــرُ أو يُهـــادى؟

أو عـــالـم يقـــول: عنه نسكتُ؟

أجب فـــإني للـجـــوابِ منصِتُ

وليت شعـري هل يقـال: اجتـهدا

كـــقــولهم في بغـــيــهِ أم ألحــدا

أليس ذا يؤذيه أم لا؟ فـــاســـمـعنْ

إن الــذي يـؤذيــه مــن ومــن ومــنْ

بل جـــاء في حـــديثِ أمِّ سلمَـــهْ

هل فـــيكم النبي يُسبُّ مـــه لِمَـــهْ

عـــاون أخــا العـــرفــانِ بالجـــوابِ

وعـــــادِ من عـــــادى أبا ترابِ

وهنا سؤال قد يثيره حاقد أو جاهل وهو: هـل كـان السيد أحمد رحمه الله تعالى شيعياً؟ أوهل كان يقف على عتبة الرفض كما يقول بعض الجهلة المغرضين؟.

للجواب عنه أقول:

أولاً: قـال الأزهـري فـي تهذيب اللغة (٣/ ٦١): «والشيـعة أنصار الرجـل وأتباعه وكل قوم اجتمعوا على أمرٍ هم شيعة، والجماعة شيع وأشيـاع. والشيعـة قـوم يهوون هوى عترة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ويوالونهم».

فمادة التشيع هي الموالاة، والحب، والمتابعة، والمناصرة، وهذا صريح الإيمان وعلامة عليه للمتلبس به مع آل البيت عليهم السلام.

فالتشيع أمره محمود، ولا ينبغي أن يذم مسلم على تشيعه، بل ينبغي أن يحمد لقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي: «لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق».

أما الغالي في التشيع أو ما يُسمى بالرافضي فلا يُذمُّ لتشيعه ولكن يُذمَ لأنه سبَّ الصحابة أو لعنهم أو حطَّ من قدرهم رضي الله عنهم أجمعين.

فالذم ليس لمطلق التشيع، ولكن لأمرٍ زائدٍ على التشيع يخالف النصوص الشرعية.

وإذ قد علمت ما سبق:

فالتشيع والموالاة والاتباع والنصرة ليست من الابتداع في شيء بل هي صريح الإيمان وعلامة من علاماته.

وتقديم علي عليه السلام أو غيره من الصحابة مع الترضي عن سائر الصحابة رضي الله عنهم وتثبيت إمامة الخلفاء رضي الله عنهم ليس من الابتداع.

والحاصل أنه يجب أن نفرق بين:

١ - التشيع.

٢ - والغلو أو الرفض.

أما الأول فهو يستلزم موالاة علي عليه السلام ونصرته واعتقاد صوابه

وهذا صريح الإيمان لأن الشيعي أتى بواجب عليه ليس ببدعة كما يرى الكثيرون.

وأما التشيع المذموم أو الغلو الزائد عن التشيع، وهو الرفض، المستلزم للحطِّ على الشيخين - رضي الله عنهما - وسبهما فهذا ابتداع وفسق. وإنما جاء الذم ليس من مطلق التشيع وموالاة علي عليه السلام بل من سبِّ الشيخين والحطِّ عليهما وعلى عدد من أكابر الصحابة رضي الله عنهم، ومنه يُعلم الجواب عن السؤال المفترض، والله أعلم بالصواب.

ثانياً: الشيعة طائفة كبيرة، وهم ينقسمون إلى زيدية، وإمامية وإسماعيلية وغير ذلك.

ولهم أصولهم وفروعهم وكتبهم الخاصة بهم، وإذا رأيت بعض أهل السنة يوافقهم في مسائل معينة فلا يعني ذلك أنه إمامي أو إسماعيلي أو زيدي.

فهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه قد وافق الشيعة في بعض المسائل فمن الجهل جعله زيديا أو إماميا، أو نحوهما، وما من إمام من أئمة السنة إلا وهو موافق للشيعة في بعض ما ذهبوا إليه، والأمر كذلك بالنسبة للسيد أحمد بن الصديق رحمه الله فقد كان أبعد ما يكون عن الاعتزال - وهو المذهب العقدي للشيعة - ومباحثه في الفقه والحديث وأصولهما سنية، وعضه بالنواجذ على أحاديث الصحابة جميعاً ظاهر لا يحتاج لدليل، وبعد فرميه بالتشيع المبتدع لا يكون إلا من جاهل وبهات ظاهر البهت والله أعلم بالصواب.

تنبيه:

١ - اعتاد النواصب ومن تأثر بقواعدهم الفاسدة رمي من أظهر الحب الصادق لآل البيت بالابتداع - يعني بالتشيع في نظرهم - أو الرفض، وهذا

علامة على ما تنطوي عليه قلوبهم من مواقف سيئة من آل البيت عليهم السلام.

ولأهل الصدق والأخلاق موقف آخر من أحباب آل البيت، ففي ترجمة عبد الرحمن بن صالح الأزدي من تهذيب التهذيب (٦/ ١٩٧):

قال يعقوب بن يوسف المطوعي: كان عبد الرحمن بن صالح رافضياً وكان يغشى أحمد بن حنبل فيقربه ويدنيه فقيل له فيه، فقال: «سبحان الله رجل أحبَّ قوماً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو ثقة».

٢ - ومهما يكن من أمر فالتشيع وهو علامة للإيمان أفضل من النصب، الذي تشم رائحته من المبغضين.

وما أحسن قول الإمام الشافعي رضي الله عنه:

يا راكباً قف بالمحصب من منى

واهتف بقاعد خيفها والناهض

إن كان رفضاً حب آل محمد

فليشهد الثقلان أني رافضي

أقوال غير محررة

١ - قال الحافظ الذهبي في الميزان (١/ ٥): «البدعة على ضربين: فبدعة صغرى كغلوّ التشيع، أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرف، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق. فلو رُدَّ حديثُ هؤلاء لذهبَ جملةٌ من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بيِّنة».

قلت: تقدم أن التشيع بلا غلو ليس ببدعة أصلاً بل هو من صريح الإيمان، وعلامة من علاماته لأدلة منها: حديث الموالاة، وحديث لا يحبك إلا مؤمن وغيرهما. واعتقاد صوابه و نصرته ومشايعته والخروج معه وبغي الخارجين عليه فمذهب آل البيت وكثير جداً من التابعين وتابعيهم وهؤلاء ليسوا بمبتدعة قطعاً، وأعجب للذهبي - رحمه الله تعالى - إذ يصفهم بالدين والورع والصدق، والابتداع في نفس الوقت.

ومع ذلك فحدُّ الغلوِّ غير منضبط، وحصره عند الذهبي أو غيره في مسائل خلافية فيه نظر، والصواب ـ والله أعلم ـ أن الغلو هو ما أدى لمخالفة شرعية كالسبِّ والبغض والحطِّ.

٢ - قال الحافظ في مقدمة الفتح (ص٤٥٩): «والتشيع محبة علي وتقديمه على الصحابة، فمن قدمه على أبي بكر وعمر فهو غال في تشيعه ويطلق عليه رافضي وإلا فشيعي».

قلت: حَصَرَ الحافظ رحمه الله تعالى التشيع في الحب المستلزم للتقديم، وأقول: أما الحبُّ فواجبُ كلِّ مسلم، وأما التقديم فمحل خلاف بين الصحابة رضي الله عنهم فمن بعدهم، فمن الصحابة من قدم أبا بكر، ومنهم من قدم عمر، ومنهم من قدم علياً، ومنهم من قدم عبدالله بن مسعود، ومنهم من قدم أبا سلمة، ومنهم من قدم من مات في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ماهو مبسوط ومعروف.

وقد تعرض كلام الحافظ لنقد عنيف فقال العلامة السيد محمد بن عقيل باعلوي الشافعي الحضرمي رحمه الله تعالى في كتابه «العتب الجميل»

(ص٢٢): «ولا يخفى أن معنى كلامه هذا - يعني الحافظ - أن جميع محبي علي المقدمين له على الشيخين روافض، وأن محبيه المقدمين له على من سوى الشيخين شيعة، وكلا الطائفتين مجروح العدالة. وعلى هذا فجملة كبيرة من الصحابة الكرام كالمقداد، وزيد بن أرقم، وسلمان، وأبي ذر، وخباب، وجابر، وأبي سعيد الخدري، وعَمَّار، وأبي بن كعب، وحذيفة، وبريدة، وأبي أيوب، وسهل بن حنيف، وعثمان بن حنيف، وأبي الهيثم بن التيهان، وخزيمة بن ثابت، وقيس بن سعد، وأبي الطفيل عامر بن واثلة، والعباس بن عبد المطلب وبنيه، وبني هاشم كافة، وبني المطلب كافة وكثير غيرهم كلهم روافض لتفضيلهم علياً على الشيخين ومحبتهم له، ويلحق بهؤلاء من التابعين وتابعي التابعين من أكابر الأئمة وصفوة الأمة من لا يحصى عددهم وفيهم قراء الكتاب، وجرح عدالة هؤلاء هو والله قاصمة الظهر. ولَعلَّ لكلام الشيخ محملاً لم نقف عليه، ويبعد كل البعد إرادته لظاهر معنى كلامه هذا لعلمه ودينه وفضله»، وما استشكله السيد محمد بن عقيل متجه قوي فللّه دره.

٣ - قال الحافظ ابن حجر في ترجمة أبان بن تغلب من التهذيب (١/ ٩٤): «فالتشيع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل عليٍّ على عثمان، وأن علياً كان مصيباً في حروبه وأن مخالفه مخطئ مع تقديم الشيخين وتفضيلهما.

وربما اعتقد بعضهم أن علياً أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه

وآله وسلم وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديناً صادقاً مجتهداً فلا تُرد روايته بهذا لا سيما إذا كان غير داعية».

قلت: إذا قصد الحافظ ذم التشيع ففيه نظر، فتقديم علي على عثمان رضي الله عنهما ليس من الابتداع في شيء، وهو محل خلاف كبير في الصحابة والتابعين فمن بعدهم.

واستغربت قول الحافظ رحمه الله تعالى: «وأن علياً كان مصيباً في حروبه وأن مخالفه مخطئ»، فتصويب علي عليه السلام هو اعتقاد أهل السنة والشيعة والمعتزلة جميعاً وهو ما نطقت به النصوص الصريحة المتواترة. وأما مسألة تقديم علي على الشيخين رضي الله عنهم فتقدم إشباعها.

رابعاً: السيد أحمد بن الصِّدِّيق الغُمَاري والتصــوف

التصوف في نظر آل ابن الصِّديق:

جاء في إحدى فتاوى العارف بالله سيدي محمد بن الصِّديق الغُمَاري رحمه الله تعالى كلمَةً في التعريف بالتصوف قال فيها: «وأما أول من أسس الطريقة وهل تأسيسها بوحي؟ فلتعلم أنَّ الطريقةَ أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحدُ أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ بعد ما بينها واحداً واحداً ـ ديناً فقال: «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم» فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان ليحرز الداخلُ فيها المدعو إليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والضامنة أيضاً لمحرزها كمال الدين فإنَّه كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بمقام الإحسان الذي هو الطريقة فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه، ولهذا نصَّ المحققون على وجوب الدخول في الطريقة وسلوك طريق التصوف وجوباً عينياً، واستدلوا على الوجوب بما هو ظاهر عقلاً ونقلاً ولسنا الآن بصدد بيان ذلك.

وقد بيّنَ القرآنُ العظيمُ من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية، فتكلم على المراقبة والمحاسبة، والتوبة، والإنابة، والذكر، والفكر، والمحبة، والتوكل، والرضا، والتسليم، والزهد، والصبر، والإيثار، والصدق، والمجاهدة ومخالفة الهوى والنفس، وتكلم على النفس اللوامة، والأمارة،

والمطمئنة، وعلى الأولياء والصالحين، والصِّدِّيقين، والمؤيدين وغير هذا مما يتكلم فيه أهلُ التصوف والطريقة رضي الله عنهم فاعرف وتأمل».

وهذه الكلمة الجليلة ضمنها شيخُنا المحقق السيد عبد الله بن الصِّديق رحمه الله تعالى رسالته «حسن التلطف في بيان وجوب سلوك التصوف» (ص٢٠، ٢١).

وكان المترجم له رحمه الله تعالى يقول: «التصوفُ هو العملُ بالعلمِ على وجه الإخلاص، والأخذُ بالعزائم دون الرخص».

المترجم له من بيت شرف، وعلم، وتصوف:

والمترجم له - رحمه الله تعالى - من بيت شرف وعلم وتصوف فجدُّه الأعلى من جهة والده هو العارف الشهير سيدي أحمد بن عبد المؤمن الحسني رضي الله عنه، كان ذائع الصيت مع كثرة الأتباع وانتشار الذكر، وكان وِرْدُه من القرآن الكريم ختمةً كلَّ ليلة، وكان يحفظُ صحيحَ البخاري، وكان إلى جانب ذلك إماماً في القراءات توفي سنة ١٢٦٢هـ رضي الله عنه وأفرد السيد أحمد ترجمته في مجلدة سماها: «المؤذن لمناقب سيدي أحمد بن عبد المؤمن».

وجَدُّه الأعلى من جهة أمه هو الإمام شيخ الجماعة مفخرة المغرب العارف بالله سيدي أحمد بن عَجِيبة الحسني صاحب التفسير، وشرح الحكم، والمصنفات الرائقة التي سارت بها الرّكبان. توفي رضي الله عنه سنة ١٢٢٤هـ.

وسيدى أحمد بن عجيبة في نفس الوقت جدُّ أبيه لأمِّه فيكون سيدي أحمد بن عجيبة قد ولد المترجم له مرتين، وآباؤه إلى الإمامين المذكورين

فمن بعدهما عُرِفوا بالولاية والصلاح وقد تأثر المترجم له بأبيه وأجداده.

ولذلك كان المترجم له صوفياً بفطرته، وكان شاذلياً درقاوياً طريقةً، يُحِبُّ السادة الصوفية ويعتقدهم، ويرى فضلهم، ويدافع عنهم بلسانه وقلمه، ويعترف بما وهبهم الله من فيوضات وأنوار وأذواق، ويزورُ الأولياء الأحياء وبعد انتقالهم.

وعقد التصوف سوقاً رائجةً بطنجة وفي شمال المغرب، وأضحت الزواية الصِّديقية بطنجة وفروعها بالمغرب محطَّ أنظار العلماء والفقراء.

وانتصارُه للتصوف وذكر محاسنه جاء ظاهراً في مصنفاته. وأحبُّ أن أقسمها هنا إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: كتب التراجم

وهي على نوعين:

أ - الجامعة؛ كالتي ترجم فيها لأعيان القرن الثالث عشر واسمه «مَجْمع فُضلاء البشر من أهل القرن الثالث عشر» أو لترتيب سلوة الأنفاس الذي سماه «الاستئناس بتراجم فضلاء فاس».

ب - كتب التراجم المفردة وهي:

١ - المُؤْذن بأخبار سيدي أحمد بن عبد المؤمن.

٢ - سبْحة العقيق في ترجمة الشيخ سيدي محمد بن الصِّديق.

٣ - التصور والتصديق في أخبار الشيخ سيدي محمد بن الصِّديق، وهو مطبوع مرات بالقاهرة.

٤ - البحر العميق في مرويات أحمد بن الصِّديق.

الأولان بالخزانة العامة بالرباط، والثالث مطبوع وهو مختصر الثاني، والأخير مخطوط في مجلدين.

القسم الثاني: كتب التصوف

ولو ذهبنا نقلب قائمة مصنفات المترجم له لوجدنا أن نفسه كانت تهفو لخدمة التصوف، فبالإضافة للتراجم المفردة أو المصنفة ضمن غيرها بادر بالكتابة في مسائل كان فرداً فيها فكتب كتابين فريدين في بابهما:

الأول: «البرهان الجلي في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي، والاتصال بأبي الحسن الشاذلي».

كان المترجم له يحس في حلقه مرارةَ كلمات أعداء التصوف، ورأى جُلَّ أهله أو كلهم عاجزين عن إقامة أسانيدهم في الطَريق فكتب السيد أحمد هذا المصنف الفريد في بابه.

وقال في ديباجته (ص١): «أما بعد، فلما كانت خرقة التصوف وأسانيد طرق الصوفية رضي الله عنهم أكثرها يتصل بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه من رواية الحسن البصري عنه، وكان الناس مختلفين في سماعه منه على قولين: فأثبت سماعه منه قوم، ونفاه آخرون، تقليداً لمن قال ذلك من المحدِّثين بدون دليل ولا برهان، واستند إلى نفيهم جماعة فطعنوا في خرقة التصوف وأسانيد الصوفية بالانقطاع وعدم الاتصال، أحببت أن أُبين خطأهم في ذلك وأحقق سماع الحسن من علي عليه السلام، واتصال السند من جهته بما لا يبقى معه شك ولا ارتياب، وأجعل الكلام في ذلك مع ابن تيمية وابن خلدون اللذين طعنا في خرقة التصوف المتصلة بعلي عليه السلام، وأُبين أغراضَهُما الفاسدة من ذلك.

وأبدأ أولاً بالكلام على سند طريقتنا الشاذلية، وأحقق اتصالها بأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وأبين ما وقعا فيه من الاختلاف والاضطراب، ثُمَّ اتصال أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الطريقين: طريق التحكيم والإرادة المتصل بعلي من جهة ابنه الحسن عليهما السلام، وطريق الخرقة والتبرك المتصل بعلي عليه السلام من جهة الحسن البصري رحمه الله تعالى.

وسميته (البرهان الجلي، في تحقيق انتساب الصوفية إلى علي، والاتصال بأبي الحسن الشاذلي).

ولقد أبلى المترجم له في «البرهان الجلي» أحسنَ بلاء فيما كتب، وترك كتابه هذا بين أيدينا شاهداً له باليقظة، والمعرفة، وسعة الاطلاع على أسانيد المتقدمين والمتأخرين وكتب أبحاثاً رائقة في إثبات سماع الحسن البصري من علي بن أبي طالب عليه السلام، ولولا كثرة الراقدين والأدعياء وتسلق المتعالمين في الأمة لكان لهذا الكتاب شأن آخر بين الناس، وليس الخبر كالمعاينة.

الثاني: وقد أفرد مباحث السلسلة الشاذلية من البرهان الجلي مع مباحث أخرى في كتابه «مناهج التحقيق في الكلام على سلسلة الطريق» ونقل منه في كتابه التصور والتصديق(ص ٢٠٠ - ٢٠٨).

القسم الثالث: كتب التخريج

١ - عواطف اللطائف من أحاديث عوارف المعارف.

٢ - غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف.

وقد تكلم السيد أحمد على الكتابين في ديباجة «الغنية» فقال: «أما بعد

فإني كنت خرَّجت أحاديث «عوارف المعارف»، للعارف شهاب الدين أبي حفص، عمر بن محمد السهروردي، رحمه الله، تخريجاً موسعاً، سميته: «عواطف اللطائف»، استخرجت فيه على ما أورده بإسناده، وخرَّجت ما أورده معلقاً، مع التعرض غالباً لذكر من في الباب من رواة الحديث من الصحابة رضي الله عنهم، ثم رأيت أن ذلك قد يعوق عن طبعه معه، لمن أراد طبعه لكبر حجمه، وإنما تتم الفائدة به بطبعه مع الكتاب نفسه، على الطريقة التي طُبع بها «المغني» للحافظ العراقي مع «الإحياء»، فإنه حصل بها انتفاع كبير، فاختصرته في هذا الجزء اختصاراً لا يخل بالفائدة المطلوبة، وسميته: «غنية العارف بتخريج أحاديث عوارف المعارف»، والله أسأل النفع به، آمين».

وقد تشرف قسم البحوث بدائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدبي بالعناية بتحقيق الكتابين: «العواطف»، و«الغنية» أما الأول فسيخرج إن شاء الله تعالى في مجلدين كبيرين، وأما المختصر فسيخرج إن شاء الله تعالى كما رغب المصنف رحمه الله تعالى بحاشية العوارف وهذه خدمة جليلة للحديث والتصوف تضيفها دائرة الأوقاف والشؤون الإسلامية - بدبي برعاية مديرها خادم العلم فضيلة الشيخ الدكتور عيسى بن عبد الله بن مانع الحميري إلى خدماتها المتعاقبة في العناية بكتب العلم.

القسم الرابع: مصنفات أخرى

١ - «الأسرار العجيبة بشرح أذكار ابن عجيبة».

هو شرح لأذكار جدِّه العارف بالله سيدي أحمد بن عجيبة في مجلدة.

٢ - لثم النعم بنظم الحكم.

وهو جزء نظم فيه حكم العارف بالله سيدي ابن عطاء الله السكندري، وعدد أبياته سبعمائة وسبعة وستون بيتاً، قال في أوله:

الحمد لله العظيم وكفى
ثم صلاته على من اصطفى

وبعد فالمقصود نظم الحكم
لابن عطاء الله عالي الهمم

وهو الذي سميتُه لثمَ النعم
بنظم ما نثر من لفظ الحكم

فمن علامة اعتماد العمل
نقص الرجا عند وجود الزلل

ومن أقام الله في الأسباب
وكان من فصيلة الأحباب

ثم أراد مهربا التجرد
فشهوة خفية إعتمد

ومن أقام الله في التجرد
فمال للأسباب والتزود

فهو انحطاط من عليٍّ الهمة
وضعف في يقينه بالقسمة

سوابق الهمم ليست خارقةْ
أسوار أقدار الإله السابقةْ

فارخ نفسك من التدبير
فالغير قام عنك بالأمور
قياما لا تقومه لنفسك
لما له من قدرة وعجزك
والاجتهاد منك في المضمون
كالرزق والمقدر المصون
مع التباطؤ عن المطلوب
دلالة فيك على العيوب
وطمس قلبك مع البصيرة
ونظرة حقيرة قصيرة
وإن دعوت الله بالإلحاح
بالليل والنهار والإصباح
ولم تر إجابة الدعاء
فلا تحيدن عن الرجاء
فإنما يعطيك ما يختار
لك وفي الوقت الذي يختار
واحذر وقوع الشك في الوعد وإن
تعين الزمان حتى يستبين
فإن ذاك مطمس البصيرةْ
ومخمد للنور في السريرةْ

ومع حبه للصوفية والدفاع عنهم والتصنيف في تأييدهم كان يهاجم من ثبت انحرافه وخروجه عن الطريق السوي، لذلك تراه في عدة مواضع من كتبه يهاجم من اعوج فهمه وذوقه ففهم من الوحدة الاتحاد أو الحلول فانظر كلامه في كشف عوار هذا الصنف في كتابه: جؤنة العطار .

وكان يدعو إلى التمسك بالشريعة والعمل بها على وجه الإخلاص ، فهذا باب كل خير وقد قال الله تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ .

ولله در القائل:

وثالث الفصول في الشريعة
لأنها إلى الهدى ذريعه
فكل باب دونها مسدود
ومن أتى من غيرها مردود
قد اصطفاه ربنا عز وجل
بفضله وجوده على الملل
طريقة العدنان للرحمن
محفوفة بالنور والرضوان
طوبى لمن أتى بها للعرض
والويل للذي بها لم يقض
يا أيها المريد إن أردت
وصال من بحبه شغلت

فشد منك الكف ياولى

علي شريعة النبي الأمي

حصل جميع ماله الشرع ارتضى

وكن لكل ما سواه رافضا

ترى الفؤاد صافياً وشارقا

وعن سوى المولى إلى المولى ارتقى

خامساً: السيد أحمد بن الصِّدِّيق الغُمَاري والاجتهاد والتقليد

إن نظرة عابرة في مصنفات وكتابات المترجم له تخبر الناظر أن المترجم له كان يحارب التقليد والمقلدين ويدعو للاتباع والاجتهاد، ويمضي في ذلك قدما ولا يهمه رضي الناس أم سخطوا، وقد ابتلي بالمقلدين الجامدين فلم يداهنهم وآثر أن يكون في نصب دائم يُرضي فيه الله ورسوله على المداهنة ورغد العيش ورضا الناس.

وليس هذا مجال كتابة ما يكفي ويشفي في «الاجتهاد والتقليد» فلسادتنا أهل العلم - أحسن الله إليهم - كلام أحاط بهذا البحث من جميع جوانبه، ولا بأس بسوق بعض حقائقه الكاشفة.

العلماء المجتهدون على مراتب: ففي الفوائد المكية لطلاب الشافعية للسيد علوي السقاف (ص٣٩) ما نصُّه:

مراتب العلماء أي المجتهدين ست: الأولى: مجتهد مستقل كالأربعة وأضرابهم. الثانية: مطلق منتسب كالمزني. الثالثة: أصحاب الوجوه كالقفال وأبى حامد. الرابعة: مجتهد الفتوى كالرافعى والنووي. الخامسة: نظار في ترجيح ما اختلف فيه الشيخان كالأسنوى وأضرابه. السادسة: حملة فقه ومراتبهم مختلفة فالأعلون يلتحقون بأهل المرتبة الخامسة.

وفي تقدمة المجموع شرح المهذب كلمات للإمامين ابن الصلاح والنووي في تقسيم المجتهدين وشروط كلٍ فلينظرها مريدها.

وفي تقدمة «النافع الكبير لمن يطالع الصغير» (ص ٧ - ١٠) لفخر الحنفيين

العلامة عبد الحي اللكنوي رحمه الله تعالى كلمات جيدة عن تقسيمات المجتهدين لا تخرج - في الجملة - عما ذكرته.

١ - قال شيخنا العلامة المحقق السيد عبد الله بن الصِّديق الغُمَاري رحمه الله تعالى في تقدمته لكتاب «الحبائك في أخبار الملائك» (ص ٦ , ٧):

«الاجتهاد نوعان: «اجتهاد استقلال» بمعنى أن يستقل المجتهد بتقعيد القواعد، وتأصيل الأصول التي يبنى عليها اجتهاده كالأئمة الأربعة فإن كل واحد منهم أصَّل أصولاً بنى عليها اجتهاده وأسَّس قاعدة مشى عليها، ويسمى «المجتهد المستقل» وهذا النوع من الاجتهاد انقطع بانقطاع عصور الأئمة، ولا يمكن أن يوجد الآن، والثاني: «اجتهاد اطلاق» بمعنى أن يعمل العالم بالدليل حيثما صح غير متقيد بمذهب من المذاهب، لكن على أساس الأصول المقررة، والقواعد الممهدة، ويسمى «المجتهد المطلق» وهذا النوع لا ينقطع، ولا يمكن أن ينقطع إلى قرب قيام الساعة، ومن حكم بانقطاعه فقد حكم على نفسه بالجهل، وحجر فضل الله الواسع، وخالف النبي ﷺ حيث يقول: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها» والمجدد لابد أن يكون عالماً مجتهداً، أما المقلد فهو عامي في عرف العلماء ولو كان يحمل أرقى الشهادات العلمية». انتهى كلام شيخنا رحمة الله عليه.

وفي تفاوت مراتب المجتهدين أثره في الشروط الواجب توافرها في أصحاب كل مرتبة.

٢ - الصحيح جواز تجزئ الاجتهاد فيكون العالم مجتهداً ومقلداً في وقت واحد، قال الإمام الفخر في المحصول (٦/ ٢٥): «الحق أنه يجوز أن تحصل صفة الاجتهاد في فن دون فن، بل في مسألة دون مسألة خلافاً لبعضهم».

وفي جمع الجوامع وشرحه للمحلى (٢/ ٤٢٥): «والصحيح جواز تجزئ الاجتهاد بأن تحصل لبعض الناس قوة الاجتهاد في بعض الأبواب».

٣ - والمشكلة الكبرى هي أن العامي وإن كان مضطراً للاجتهاد لقصوره، فما الظن ببعض علماء العصر الذين أتقنوا العربية بفروعها، والمنطق ودقائقه، والفقه وأصوله وقواعده، مع توفر ملكة تمكنهم من فهم عبارات المتون والشروح والحواشي التي عُقدت - في بعض الأحيان - وصارت أشبه بالألغاز، والنظر في التحقيقات والإشكالات وتصوير الاعتراضات والإجابة عن كل ذلك وهم مع ذلك يصرحون بعجز هم عن فهم آيات وأحاديث الأحكام والاستنباط منهما مع أن الله تعالى خاطبنا بلسان عربي مبين خالٍ من كل تعقيد وإبهام.

فمن هؤلاء من أبدى عجزه وقصوره وحرَّم النظر في الكتاب والسنة، ولا يخرج عن متن المذهب وشروحه وحواشيه وتقريراته مع أنه جبل راسخ وطود شامخ، والأدهى من ذلك أن هؤلاء إذا ظهر بينهم من يطلب الدليل أو ينظر فيه قاموا عليه واتهموه بالعظائم، فهذا إفراط وخروج عن الجادة، ومحل تشنيع كثير من الأئمة.

وهذا الصنف من العلماء الذين جمدوا على نصوص المتن وشروحه وحواشيه كانوا محل انتقادات قاسية من السيد أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى وحصلت بينهما معارضات ومناقشات. وإذا كان صاحب البيت أدرى بما فيه فإن للمترجم له كلمة في الحاجة إلى الاجتهاد هي أكثر إيضاحاً وأنصع بيانا، وهناك ضميمة أخرى لها كانت إجابة عن سؤال رفع إليه. وفي الكلمة والضميمة كشف وبيان ناصع لموقفه المثالي، ولكن البلوغ إليه شأو بعيد إلا لمن

كان من أهل العناية وتوفرت فيه شروط النظر ولنبدأ بالكلمة ثم بالضميمة.

أولاً: قال المترجم له في تقدمته لكتابه «تحقيق الآمال في إخراج زكاة الفطر بالمال» (ص٣٥-٣٨):

من يعلم أن أفعال المكلفين لا تخلو من أحكام لله، ويعلم أن نصوص الشرع الدالة على الأحكام محصورةٌ متناهيةٌ، والأفعال والحوادث غير محصورةٍ ولا متناهية: - وما لا ينحصر ولا يتناهى، لا يضبطه ما ينحصر ويتناهى - يعلم قطعاً أن الاجتهاد واجب الاعتبار، وأن الزمان لا يجوز عقلاً خُلُوُّه من مجتهدٍ قائمٍ لله بالحجه على خلقه. وذلك باستنباط حكم أفعالهم المحدثة، ووقائعهم المتجددة، حتى يكون لكل حادثة اجتهادٌ يبين حكم الله فيها بطريق النظر والاستدلال. وإلا لزم تعطيل الأحكام في كثير من الحوادث والأفعال، وترك الخلق سدى يعمهون في بحار الهوى والضلال، واجتماع الأمة على الخطأ والباطل، وذلك محال!

ولهذا حكم الأئمة وفقهاء الإسلام من سائر المذاهب بأن الاجتهاد فرضٌ كفائي، وأنه يجب أن يكون في كل قطر من تقوم به الكفاية، وأن الفرض لا يتأدى بالمجتهد المقَيَّد، بل لابد من المجتهد المطلق. وحكوا الاتفاق على هذا، بل حكى الإمام الشافعي وغيره الإجماع عليه.

والاجتهاد هو: استعمال النظر في النصوص، واستفراغ الوسع والطاقة في استخراج الأحكام منها، بقياس ما لم يُذكر فيها على ما ذُكِرَ بعلَّةٍ جامعة، مع مراعاة الأصول والمقاصد، وبهذا كانت شريعتنا مستمرة إلى قيام الساعة، وعامةً لكافة الناس فكان النبي يبعث إلى قومه خاصةً، وبعث نبينا صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس كافةً، وخُتِمَ به النبيئون فلا نبي بعده؛ لأن شريعته

صالحةٌ لكل جيل، في كل مكانٍ وزمانٍ، متكفلةٌ بسعادة الخلق ومصالحهم الدينية والدنيوية في كل عصرٍ وأوانٍ.

فما من حادث يحدث في قطر على اختلاف عوائده وطبيعته، ولا في زمان على تبدل أطواره وتغير حالته: إلا وفي نصوص الشريعة وأصولها ما يبين حكم الله تعالى في تلك العوائد المختلفة، والحوادث المتجددة، والوقائع النادرة المتباينة: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. ولو لا ذلك لكانت الأمةُ مضطرة إلى وضع القوانين وتغييرها بتغير الأزمان وتبدل الأطوار، كما هو شأن الأمم الأخرى على اختلاف الملل والنحل والأديان. فما من أمة - بل ولا دولة - إلا وتغير قوانينها الشرعية والسياسية، وتدخل عليها من الزيادات والتعديلات ما يناسب الظروف والأحوال، كلما تغيرت الحوادث وتبدلت الأطوار، وربما وقع لهم ذلك في السنة الواحدة مراتٍ.

أما الشريعة الإسلامية فمنذ جاء بها نبيها الأكرم، ورسولها الأشرف الأعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي مستمرةٌ خالدةٌ عامةٌ شاملةٌ لكل الوقائع والحوادث والقضايا والنوازل، في كل العصور والأزمان، لا تتغير ولا تتبدل: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾. فمن رجع إلى كتب الفقه والنوازل الشرعية، يجد أحكام القضايا المحدثة والنوازل المستجدة، لا تخرج عن قواعد الشريعة وأصولها، مهما كثرت النوازل وتباينت أنواعها، وتعددت الوقائع واختلفت أجناسها، لا فرق فيها بين ما صدر في القرن الأول والثاني، أو السابع والثامن، أو الثالث عشر والرابع عشر، على اختلاف هذه الأزمان وتباينها وتغير حوادثها وأطوارها!

وهـذا أيضـاً مـن أعظم الحـجج وأوضح البـراهين على عـدم انقطاع الاجتهـاد وخلـو الزمـان مـن المجتـهـدين. فإن كتـب النـوازل والفتاوى، على المذاهـب الأربعـة وغيـرها، بالغةٌ آلاف المجلدات، وجُلُّ ما اشتـملت عليه صـادرٌ عن غيـر الأئمـة الأربعـة، بل وعن غيـر أصحـابهم وأصحـاب أصحابهم، إنما هو استنباط مَنّ جاء بعدهم من الفقهاء والمفتين، في كل عصر إلى وقتنا هذا، الذي هو مع ضعف همم أهله، وقلة عنايتهم بالعلم ورغبتهم فيه، قلما يخلو فيـه بلدٌ أو قبيلة من مفتٍ أومفتين، يستنبطون لكل حادثةٍ حكمها من النصوص الفقهية، والقواعد المذهبية، أو ما تقدَّم لها من الأشباه والنظائر التي حكم فيهاأمثالهم من المفتين السابقين. فهذا عين الاجتهاد الذي ينكره جـهلة العصور المتـأخرة، ويدَّعون استـحالته وعدم قـدرة أهل الزمان عليه، مع أنهم مجتهدون حتى في إنكارهم الاجتهاد الذي لم ينكره أئمتهم، بل عدُّوه من فروض الكفاية والواجبات التي لا يجوز خلو الزمان منها، وهم بهذا الاجتهاد لا يشعرون!.

ومن أمثلة ذلك: الحوادث العامة التي حدثت في هذه الأزمان مما لم يسبق له مثيل في عصر الشارع والقرون السالفة، حتى المتأخر منها. بل منه ما لم يحدث إلا في هذا القرن الرابع عشر، مما نشأ عن الاختراعات الحديثة، والخوارق المدهشة التي كانت من زمن قريب تُعدُّ من المستحيل، فأصبحت اليوم من المألوفات العادية. انتهى، كلام السيد أحمد رحمه الله تعالى، وقد استطاع بهذا البيان أن يبدد كل شبهة، وأن يعصف بكل تمويه.

ثانياً: الضميمة للكلمة النفيسة المتقدمة، ومزية هذه الضميمة التصرف

العلمي في جانب كبير من مبحث الاجتهاد والتقليد وإبداء المترجم له لوجهة نظره فيه :

قال السيد أحمد رحمه الله تعالى في جواب له عن الاجتهاد والتقليد، وتقليد بعض العلماء : «المقلدة على ثلاثة أقسام : عوام، وعلماء بحسب العرف وإن كانوا جهلة في الحقيقة، وأئمة علماء.

١ـ فالعوام لا يوصفون بتقليد ولا اجتهاد لأن العامي لا مذهب له وإنما مذهبه قبول مذهب من يفتيه . . .

٢ـ والقسم الثاني العلماء على الحقيقة وهم المجتهدون الاجتهاد المذهبي وهؤلاء هم الذين يطلق عليهم مقلدة؛ مالكية، شافعية أو حنفية على الحقيقة لأنهم نظروا في أصول الأئمة التي بنوا عليها مذاهبهم فاختار كل واحد منهم مذهب إمامٍ بعينه لأنه رأى بحسب نظره واجتهاده أن هذه الأصول هي الحق الذي يجب التمسك به، فالمالكي نظر في قواعد مذهب مالك وفي قواعد مذاهب غيره وأصولهم التي بنوا عليها مذاهبهم فرأى أن أصول مالك أرجح من أصول غيره، فتمسك بها لاعتقاده أنها الحق وغيرها بضد ذلك، فهو مجتهد في اختيار المذهب، فلو قلت لواحد منهم : لم اخترت مذهب مالك على مذهب الشافعي، أو العكس مثلاً؟ لقال لك : إن المذهب الذي أخذته مبني على كذا وكذا وهو الحق والدليل على كونه هو الحق كذا وكذا وهكذا إلى آخر أصول المذهب؛ ثم يتعرض لأصول المذاهب الأخرى فينقضها أصلاً أصلاً بالدلائل الظاهرة له، فهو مقلد مجتهد في آن واحد؛ ثم منهم من يستعمل هذا القدر في أول الأمر حتى يحصل له الاعتقاد الراجح بأن مذهب

إمامه هو الحق ويترك بعد ذلك النظر في أدلة فروعه لأنه قد اعتقد أن المذهب كله حق، وغالب هؤلاء فقهاء ليس لهم معرفة بالحديث، فلذلك اعتمدوا على النظر في أصل المذهب وتركوا النظر في أدلة فروعه ولكنهم إذا وجدوا دليلاً مخالفاً لقول إمامهم أو وجدوه قد ضعف مدركه ورأيه في مسألة خالفوه فيها وقالوا قولاً نسب إليهم في المذاهب أو رجحوا قولاً لمن سبقهم نُسب إليهم ترجيحه، فهؤلاء وإن كانوا مقلدة، فهم على هدى وحق، ومن هؤلاء عياض والنووي وابن العربي والأئمة المتقدمون غالباً لا كلاً، وهم أهل القرن الثالث إلى السابع ما عدا أهل الجحود منهم.

ومنهم من يكون من أهل الحديث فيعرض جميع فروع مذهبه على الدليل، فما وافقه أخذ به، وما خالفه تركه وعمل بالدليل وهو مع ذلك متمسك بالانتساب إلى المذاهب لاعتقاده أن إمامه لو علم بهذا الدليل لقال به كما نص عليه الأئمة الأربعة، يقول كل منهم: إذا صح الحديث فهو مذهبي ... ومن هؤلاء النووي وابن العربي أيضاً، فهؤلاء أئمة هداة وعلماء مجتهدون طائعون لله ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تابعون للدليل لا لمجرد رأي الإمام.

ولذلك وجدت لهم أقوال كثيرة مخالفة لأقوال أئمتهم إلا أنهم وإن كانوا هداة وعلى حق فهم في نفس الأمر على غير الجادة لأنهم على غير طريقة الصحابة والتابعين والسلف الصالح الذين منهم أئمتهم، فإن مالكاً مثلاً ما كان يقلد الزهري ولا نافعاً ولا ربيعة ولا الحسن البصري ولا سعيد بن المسيب ولا غيرهم من شيوخه وشيوخ شيوخه بل ولا كان يقلد الصحابة حتى الخلفاء الراشدين الوارد فيهم الحديث، والفروع المخالفة لهم لا تكاد تنحصر، وإنما

كان يأخذ بالدليل وبما ظهر له أنه الحق، وهو الواجب على كل مسلم . . . وكذلك الشافعي ما كان يقلد شيخه مالكاً ولا ابن عيينة ولا غيرهما .

فإن قلت: ولم تركوا طريق السلف وخالفوهم بالتزام التقليد؟

فالجواب: أن الحامل لهم على ذلك أمران .

١ـ أحدهما: أنه لم يكن لجميعهم معرفة بالحديث ولا قدرة على الاستدلال لكل جزئية وإنما كان لهم كبير فكر وقوة نظر أدركوا بها حقيقة مذهب إمامهم فاعتمدوا على ذلك، ويدلك على هذا أن كبار الأئمة المقلدين نصوا في كتبهم في الفروع والأصول على حرمة التقليد وذموه غاية الذم مع أنهم منسوبون إلى مذهب من المذاهب لأنهم يعتبرون أنفسهم غير مقلدة وأنهم مجتهدون، وافق اجتهادهم اجتهاد إمامهم كما قال القاضي عبدالوهاب وعياض والقرافي وغيرهم . .

٢ـ ثانيهما: الدنيا . . . فإن الله تعالى جعل المخلوق مبتلى في هذه الدار بأمر المعاش وجعل أهل العلم ضعفاء عاجزين عن اكتساب قوتهم من الأسباب المتعارفة ولا يمكنهم تحرير المسائل والتوسع في الاطلاع مع الاشتغال بالتكسب كما قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: لو كلفت شراء بصلة ما فهمت مسألة! وكان أهل الحديث في الصدر الأول يفنون أعمارهم في طلب الحديث وجمعه من عند الشيوخ حتى كان الواحد منهم يبقى في الرحلة أربعين سنة، فلم يكن عندهم الوقت ليشركوا غيره من الفنون التي لم يكن دون منها شيء بل كانت تدرك أيضاً بالرحلة إلى الشيوخ وتقييدها عنهم، فكان النحوي واللغوي لا يستطيع أن يضم إلى فنونه غيرها، وكذلك الفقيه لا

يستطيع أن يكون محدثاً لغوياً نحوياً ولا يحرز من ذلك إلا القدر الواجب الذي لابد منه. وكانت الملوك في حاجة إلى الفقهاء لا إلى غيرهم لأن علم الفقهاء هو الذي ينفعهم في فصل القضاء والحكم بين الناس وإقامة أمور الدولة والسياسة على ميزان الشريعة، فضربوا الفقهاء وولوهم القضاء والفتيا ورفعوا مناصبهم وأجلوا أقدارهم وأغدقوا عليهم النعم لشدة انتفاعهم بهم، فصار الفقه هو الموصل إلى الدنيا ورياستها وعظم الجاه فيها بين الملوك والعامة. وكان قد اشتهر مذهب أبي حنيفة بالعراق وخراسان وما وراء النهر، واشتهر مذهب الشافعي بالحجاز واليمن ومصر حتى قال أشهب: «اللهم أمت الشافعي وإلا ذهب علم مالك بن أنس»!. واشتهر مذهب مالك بمصر أيضاً والمغرب والأندلس . . . والزم أهل كل قطر القضاء والفتيا على مذهب الإمام الشائع مذهبه فيه تقريباً للراحة لأن نصوصهم موجودة مدونة، فتوطدت المذاهب بذلك ورسخ قدم التقليد وصار العالم المتطلع إلى الدنيا والتوسع فيها لا يمكنه الوصول إليها إلا عن طريق التقليد. ولهذا كان العالم يصل إلى درجة الاجتهاد ولا يستطيع أن يفارق مذهب بلده لأنه لو فعل لنبذ وطرد من أبواب الملوك وحرم من سائر الوظائف . . . وقد سئل الحافظ ولي الدين أبو زرعة العراقي فقيل له: «لم بقي التقي السبكي شافعياً مع أنه حاز من علوم الاجتهاد مالم يحزه إمامه الشافعي؟ «فقال: «كان التقي السبكي قاضي القضاة وابنه التاج قاضياً بالشام، وبيده مع ذلك وظائف جلها موقوف على الشافعية، فلو ادعى الاجتهاد لسلب منه جميع ذلك!.

فهذا هو السبب في عدم إعلانهم بالاجتهاد المطلق ونبذهم للمذاهب، وانظر الحافظ السيوطي لما ادعى الاجتهاد كيف نبذه أهل عصره وحاربوه وبقي

منعزلاً في بيته!! وهكذا شأن كل من ادعى الاجتهاد . . .

٣ـ والقسم الثالث من المقلدة: وهم ـ في نظر المترجم له ـ العلماء الجامدون على المذاهب تقليداً لا تنقيداً واتباعاً، ويزيدون على ذلك عداوتهم لمن يعلن طلب الدليل والبحث عنه والدعوة لاتباعه، كما جاء عن يوسف النبهاني أنه يتقذر من رؤية الداعين إلى العمل بالدليل كما يتقذر من رؤية النجاسة!! وكما قال جعفر الكتاني في الرد على عبدالله السنوسي: وبعد، فقد نبغت نابغة من المجوس رأسهم ابن حزم يقولون: لا يجوز العمل إلا بكتاب الله وحديث رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم!! فسماهم مجوساً وجعل علة تمجسهم قولهم: لا يجوز العمل إلا بكتاب الله والحديث!! ثم قال في آخر كتابه الخرافي: الفصل العاشر في تحريم العمل بكتاب الله وحديث رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . . . الخ . . !! هكذا يصرح بالتحريم بكل جرأة ووقاحة! وسمى الخضر الشنقيطي كتابه في نصرة التقليد: «قمع أهل الزيغ والإلحاد عن الطعن في أئمة الاجتهاد» فسماهم ملاحدة وجعل قولهم: «لا يجوز تقليد الأئمة» طعناً فيهم!! وقال القادري في رسالته في العمل بالضعيف من أقوال المذهب: فإن قلت هل يجوز العمل بالحديث؟ فالجواب: لا!!!.

ولو أملينا عليك ما سمعناه منهم ووقع لنا معهم لسمعت العجب العجاب. انتهى باختصار. فهذا الصنف وفيهم ألفنا كتابنا «الإقليد».

والحاصل أن ذم السيد أحمد إنما هو للمتأهل للنظر الذي يجمد على المذهب.

تكميل[1]

١ - كان المترجم له رحمه الله تعالى قد استكمل آلات العلوم، ودرس المذهبين المالكي والشافعي، فقل فيه:

صَبَا للعلم صَبّاً في صباهُ
فأعْلِ بهمَّة الصَّبِّ الصَّبِّي
وأتقن والشباب له لباسٌ
أدلة مالكٍ والشافعيِّ

وبرع في الحديث وفنونه، وشارك في سائر العلوم المتداولة، واعتنى عناية زائده بسرد المطولات التي تصل إليها يده سواء كانت مطبوعة أم مخطوطة، فاطلع على ما لم يطلع عليه غيره، فكان من الصعب أو المستحيل أن يتوافق مع غيره فعاداه أصناف من معاصريه جمدوا على ماعندهم ولم يفهموا مداركه.

٢ - عاش المترجم له حياة بعيدة عن الاسترخاء فتحمل أعباء العائلة الكبيرة والزاوية في عنفوان شبابه، وقام بثورتين ضد الأسبان والفرنسيين وحكم عليه بالسجن ثم بالاعتقال والغرامة الكبيرة ومصادرة أملاكه، وصراعه مع العلمانيين والمنحرفين عن الجادة وأعوان الاستعمار استمر حتى نهاية حياته، إلى جانب اشتغاله بدقائق العلوم والتصنيف في أصعب المسائل،

---

(١) قرأت هذا التكميل عبر الهاتف على شيخنا العلامة الجليل سيدي إبراهيم بن الصديق الغماري حفظه الله تعالى وشفاه يوم الجمعة الفاتح من صفر الخير سنة ١٤٠١ هـ فأقرني عليه مبتهجاً.

وقد أخبرني أحد أخوانه أن المترجم له كان قد انتهى من تصنيف أحد أجزاء (المداوي لعلل المناوي) الستة وطلب منه أن يذهب به إلى المجلد، بينما كان جماعة من المجاهدين في منزله يثقفون السلاح لمحاربة الكفار.

٣ - لم يعمل المترجم له في أي وظيفة حكومية، ولم يتقاض فلساً واحداً من أي جهات رسمية، وكان لا يداري ولا يداهن ولا ينافق فما يراه صواباً يصرح به، مع قلة الاسترشاد برأي الغير، ووجود حدة تعتريه عند مقارعة الخصم.

فالمترجم له - رحمه الله تعالى - عاش في أوقات كثيرة من حياته في اعتقال واضطراب ونفي وتضييق ومحن، ثم توفي غريباً بمنفاه بالقاهرة بعد تعرضه لصنوف من الأذى واضطراره لمغادرة القاهرة عدة مرات مما يطول شرحه هنا.

جـــــزاه ربـي أفـــــضـل الجـــــزاء

عـــنـــا وزاده مـــن الـــعـــطـــاء

هذه الأمور الثلاثة كان لها أثر كبير على قلم المترجم له - رحمه الله تعالى - الذي كان يشط أو ينزلق في ألفاظ كان هو في غنىً عنها، فإن المترجم له في جل مباحثه لا تعوزه الحجة فيما يتكلم فيه ويقرر، بيد أن الشدة - التي لم أجد لها طباً في أحوال كثيرة - قد تخرج به عن المألوف وتكون سبباً في نفور بعض القراء لا سيما المشارقة والسطحيين، الذين لم يتعودوا على عبارات المغاربة.

٤ - توفي المترجم له ولم يبيض أو ينقح بعض كتبه، وبعضها كان شبيهاً بالمذكرات والفوائد وقد انتشرت هنا وهناك لأغراض متباينة، فإخراج هذه

الكتب بين الناس يحتاج لأناة ونظر طويل وصبر، ولا بد من إزالة الاشتباه هنا عن بعض ما نشر للسيد أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ.

أ – جؤنة العطار: وهو كتاب فوائد ونوادر وآراء، كتبه السيد أحمد في حالة تضييق واعتقال، ولم ينقحه ولم يتمه.

ب – بيان تلبيس المفتري محمد زاهد الكوثري.

الخلاف بين السيد أحمد بن الصديق والكوثري ـ رحمهما الله تعالى ـ له أسبابه المعروفة، وذكره سيدي العلامة الجليل عبد الله بن الصديق ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: بدع التفاسير (ص١٨١ت) قائلاً:

تعرض له ـ يعني المترجم له ـ الكوثري في «تأنيب الخطيب» ورد عليه بعبارة فيها جفاء، فكتب شقيقنا رداً عليه، جمع فيه سقطاته العلمية، وتناقضاته التي منشأها تعصبه البغيض، وقسا عليه بعض القسوة، وهو مع هذا معترف بعلمه واطلاعه. ولم يقدم الرد للطبع، احتراماً لصداقته. والعالمان المختلفان في الرأي لا تنفصم صداقتهما، كالمحاميين يختلفان في ساحة المحكمة، ويجتمعان خارجها صديقين. لكن بعض الجهلة اتخذوا هذا الخلاف العلمي سبباً لإشعال نار العداوة بينهما، فخيب الله مسعاهم، وردهم خاسئين. رحم الله شقيقنا والكوثري عالمي عصرهما بدون مزاحم، وجمعنا وإياهما في دار رحمته.

وهذا نصٌّ أو كالنصِّ في انتهاء أمر هذا الرد، وأكثر من هذا أن السيد أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ جرد مقدمة الرد وهو الخاص بحديث «لو كان الإيمان

بالثريا» في جزء خاص اسمه «إظهار ما كان خفيا من حديث لو كان العلم بالثريا» وهو عندي، وأعرض عن باقي الكتاب تماماً فهذا تراجع صريح عن الرد.

وحدثني شيخنا العلامة السيد إبراهيم بن الصديق وكان ملازماً لأخيه السيد أحمد لا سيما في أيام حياته الأخيرة بالقاهرة: «أن الرد على الكوثري كان وليد غضب عند السيد أحمد، ولما هدأت ثورته تراجع عن الكتاب فلم يتمه وكان يخفيه في وسط كتبه ولا يحب أن يراه أحد، والشقيقان يختلفان ثم سرعان ما يتراجعان».

ووقت مجاورتي بمكة وقعت لي نسخة من الردِّ المذكور بخط مشرقي فيها سقط وتحريف فتحايل قضاعيٌ على سيدي عبد العزيز بن الصديق - رحمه الله تعالى - فأمرني أن أسلمه إياها لينظر فيها على ألا يصورها، ولكن هذا القضاعي كان له مقصد آخر وهو الطعن في الغماري والكوثري معاً فصوَّر النسخة وانتدب أحد أصحابه وقدمها للطبع واستاء الغماريون من هذا التصرف، والله المستعان.

جـ - هناك رسائل وهي أجوبة علمية مشحونة بالفوائد والنوادر كتبها السيد أحمد بن الصديق لأصحابة، وهي في أحيان كثيرة تحكي واقعاً وتصور حادثاً غير قابل للتعميم، وقد لا تعطي رأيا صريحاً للسيد أحمد بن الصديق. والشيخ يصرح لتلميذه بما لا يصرح به للناس، فالطلبة لهم اختصاص بالشيخ وبسبب هذه الخصوصية قد يقع توسع في الألفاظ وتجاوز في العبارات، فإخراج مثل هذه الرسائل كما كتبت تسرع غير محمود، وقد عاب السلف

على من حَدَّث بمالا يعقله الناس أو بالغريب أو بكل ما يسمع ، ومن أبواب كتاب العلم في صحيح البخاري (الفتح ١/ ٢٢٥) : باب من خصّ قوماً بالعلم دون قوم كراهية ألا يفهموا . والله المستعان .

* * *

وهذا نهاية ما أردت تحريره من الترجمة المختصرة للسيد أحمد بن الصديق الغماري ـ رحمه الله تعالى ـ وأنا الفقير إلى الله تبارك وتعالى محمود سعيد محمد ممدوح المصري الشافعي غفر الله لي ولوالدي ولمشايخي ولسائر المسلمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم ، والحمد لله في البدء والختام .